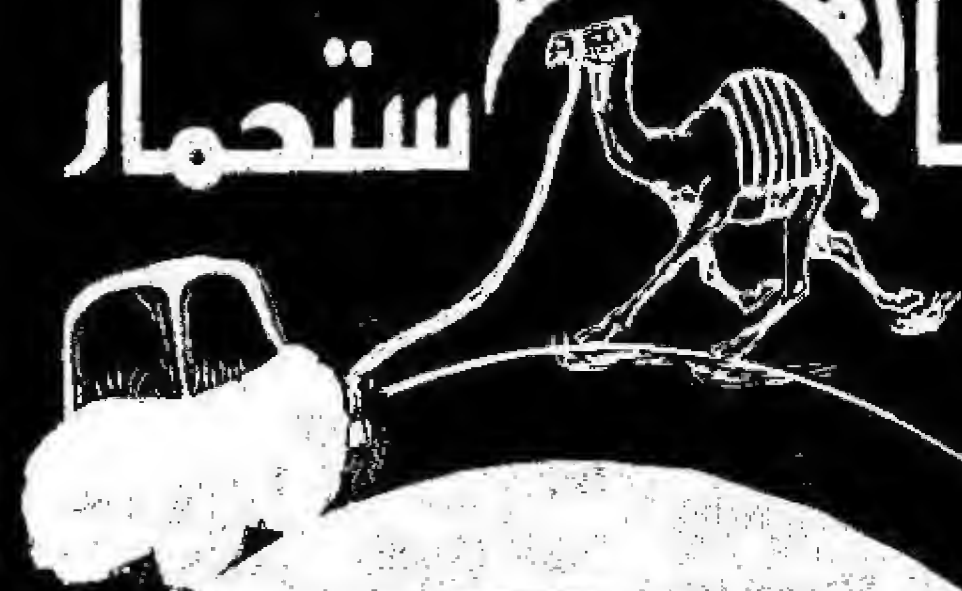


الشهيد الدكتور علي شريف

النبأ حقة والباطل استحمار



الطبعة الأولى
1977



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع

بناية الكومودور سنتر - الحمراء -

لبنان - بيروت - ص.ب ٦٣٨١ / ١١٣

تلفون ٣١٧٩٤٩

الشهيد الدكتور علي شريعتي

النبا حقة والارستقمار

الدار العالمفة
الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ



بسمه تعالى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد ،
وآله الطاهرين ، وبعد ، فهذه محاضرة ألقاها الدكتور علي
شريعتي ، رحمه الله ، في قاعة حسينية (ارشاد) ،
بظهران ، وقد سجلت على اشرطة ، ثم نقلت على
السورقة ، وجمعت بين دفتي كتاب ، سمي (خود أكاهي
استحمار) أي (النباهة والاستحمار) . ونحن نقدمها
لقراء العربية ، آملين الاستفادة منها ، والله خير موفق
ومعين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

إن الحالة الخاصة التي نعيشها ، تفرض علينا ان نقول كلمتنا الأخيرة أولاً ، وأن نقرأ الكتاب من آخره ؛ ومن هنا ، فإن الموضوع قد يبدو مملاً للذين لم يتعرفوا بعد على الظروف الفكرية للقضايا التي سأعرضها ، وقد يحتاجون لمزيد من التأمل والدقة ؛ ومهما يكن ، فإني أعرض في هذه الجلسة ، أفكاراً تحتاج لجلسات عدة ، لكن ، لعدم توفر الفرص ، سأقول في أول كلمتي ، ما كان ينبغي أن أقوله في آخرها ؛ وهذا مما يزيد في إبهام الموضوع ، خصوصاً ان الكلام يدور حول مسائل فكرية وليس علمية .

وقبل البدء بالشرح والتفصيل ، أريد أن أقول : يجب ان نكون نبهين ، ولا نتوهم انفسنا مغتئين فكرياً بالكفاءة

العلمية ، لأن تلك كفاءة كاذبة ، ومُدْعَى الاكتفاء كاذب ، وهذا نوع من الغش الذي يختص به المثقفون والمتنورون في زماننا ، لأن المتعلم بعد أن ينال دراسات عالية ، ويكتسب معلومات واسعة ، ويتعرف الى اساتذة كبار ، والى كتب مهمة ، يشعر أنه أصبح مشبعاً بالعلم ، ويحس في نفسه رضى وغروراً ، ويظن انه بلغ من الناحية الفكرية أقصى ما يمكن ان يبلغه الانسان الواعي ؛ ولا شك أن هذا انخداع يتلى به المتعلم أكثر من غيره .

قد لا يفكر الاستاذ ، أو الفيزيائي ، أو الفيلسوف ، أو الاديب ، أو المؤرخ ، أنه يمكن ان يكون لا شيء من الناحية الفكرية ، وأنه في مستوى أقل العوام شعوراً ، وحتى الأسى الذي لا يحسن الخط مثلاً ، قد يكون أرقى منزلة في الدراية الشخصية وفي معرفة الزمان والمجتمع . إن بقاء المتعلم جاهلاً ، والمثقف فاقد الشعور ، واعطاء كل منها ألقاباً بارزة ، كالدكتور والمهندس والبروفسور لحالة مؤلمة جداً ، فيما لو استمر أي منهم . عديم الفهم والنباهة ، والشعور بالمسؤولية تجاه حركة التاريخ ، التي تأخذ معها ، هو ومجتمعه في هذا الزمان .

إن خطر بقاء المتعلم جاهلاً ، وأخرس ، وأعمى ، ولا شيء لخطر كبير جداً ، لأن الانسان إذا أشبع بالعلم ، لم

يعد يشعر بالجوع الفكري ، حيث أن المتعلمين في هذه
الايام ينظرون الى قضايا العلم منفصلة عن قضايا الفكر .

اختيار المقرر

إن مجتمعات العالم الثالث ، في اسيا وافريقيا واميركا اللاتنية ، المتأخرة صناعيا ، والتي لم تصل بعد الى مستوى الأوروبيين والأمركيين في شتى المناحي الفنية والفلسفية ، - ان هذه المجتمعات الفقيرة المتخلفة - تملك قدرات هائلة ، وتقف مكافحة ضد الغرب ، وتجبره على الخضوع والاستسلام ، في وقت بلغ الغرب فيه الذروة من حيث التقدم العلمي والتقني والفلسفي . وبالرغم من اقدمه على شراء النخبين والمتفوقين من العالم الثالث ، حيث أنه مركز المال ، وهذه الكفاءات صارت كالسلع المعدة للبيع والشراء ، تتبع المال اينما كان .

إن امتلاك الغرب للميراث العلمي ، واحتفاظه بجميع

الذخائر في الفروع العلمية كافة ، سواء منها ، تلك التي ابتدعها هو ، أو تلك التي أخذها عن ، غيره ، فبلغ بها ذروة التكامل العلمي والفلسفي والتكنولوجي ، لا يمنعه من الخضوع أمام مجتمعات لا تملك أي نوع من انواع الاسلحة ، وقد يكون أفرادها حفاة ، ولا يمتلكون حتى آله للدفاع عن حياتهم ، وحياة أسرهم . فمن هما طرفا الجدل والقتال في هذا العصر اذا ؟ ! .

هناك مجموعة من القدرات العلمية والصناعية ، تقاتل جماعة تفتقد الصنعة والعلم ، ومصير هذا القتال بعد عدة أشهر وسنين ، سيكون لصالح أولئك الحفاة في هذه الدنيا ، سيكون بلا شك لصالح أولئك الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، وستخسر تلك القدرات التي حازت الذخائر العلمية والفنية طيلة تاريخ البشر !! فمن يقتل مع من ؟؟

العلم في معركة مع « الفكر » ؛ هذا الحافي الجائع ، الذي قضى عليه ان يبقى فقيراً مريضاً ، تسليح بالايمان والعقيدة ، واستطاع بنباهته من التغلب على ذاك الذي جمع المقدرات العلمية والصناعية والفلسفية البشرية ، وادخر ثروة العالم ، رغم كونه أمياً . اذاً ! هناك شيء آخر ، غير الثروة والقدرة والعلم والفلسفة والتكنولوجيا ، شيء لو صرفنا النظر « عن وجوده » لهزمنا أمام حفاة

الدهر ، وان كانوا عبيداً مظلومين ، لأننا ننهار من
الداخل ، حتى لو بلغنا ذروة التكامل ، كما بلغ الغرب
المتحول اليوم (شرط ان نبلغ ، لكننا لا نبلغ) .

ومن هنا تقف المجتمعات التي تريد أن « تختار » أمام
طريقين : طريق العلم والرأسمالية والقدرة والصناعة ،
وطريق الفكر والعقيدة . ومن المسلم به ، أن المجتمع
الذي يرتبط بهدف عال ، بعقيدة وإيمان ، يتفوق على كل
قدرة ، حتى ولو كانت القوة التي تسيطر على « المنظومة
الشمسية » . وان مجتمعاً كهذا ، ستكون له بعد عشر
سنين ، او خمس عشرة سنة حضارة ، كما ستكون له
صناعة ، وسيُنتج على مستوى عالمي ايضاً . وهناك نماذج
كثيرة في الزمن الماضي ، وفي وقتنا الحاضر . أما إذا كان
المجتمع فاقداً لنموذج يهدف اليه ، فاقداً للإيمان ، وللوعي
الشخصي والاجتماعي وليس همه الا الصناعة
والرأسمالية ، أو ما يسمى اليوم بالتقدم العلمي والصناعي
(فإن وفق لنيل ما يروم ، ولن يوفق) فإنه سيبقى
مستهلكاً ، وان ظن أنه منتج . وهذه هي الخديعة
الكبرى ، التي وقعت فيها جميع البلاد المتأخرة ، فعُسرَت
ذلك الشيء الذي يهبُ الرقيق العجوز المحروم قدرة تزلزل
العجائب . وهكذا ؛ فإذا كنا أصحاب عقيدة ، فإنه متى
وفقنا ان نجتاز مرحلة الايمان بنجاح ، فإننا سنكون صانعين

لا كبر حضارة . أما اذا لم نشعر بنقص فكري ، ولم
تتكشف لنا قضية الايمان والعقيدة ، ولم تتضح طريقنا ،
فإننا سنبقى محتاجين أرقاء للمنتجين ، نعتمد على
حضارتهم ، ونستهلك انتاجهم .

وللمجتمعات المتأخرة ، كما يقول فانون ، مصير
متشابه ، ولها حاجات واحدة ، لأنها تواجه قدرات متشابهة
في زمن مشترك واحد ، وعليها ان تختار بين « الفكر » و
« الحضارة » من غير فكر ، ونعني « بالحضارة » ما يخرجها
المتحضرين لنا ؛ ومن هنا ، أزمة المثقف اليوم في البلاد
المتأخرة ، في الشرق الأدنى ، او الشرق الأقصى ، أو
اميركا اللاتينية ولا فرق في ذلك .

ولقد كشفت التجارب ، طيلة الخمسين سنة الماضية ،
أن المجتمعات التي بدأت من نقطة عقائدية ، وتحركت بعد
تحقق وعيها الفردي والاجتماعي ، وقفت اليوم في صف
القدرات التي تصنع الحضارة العالمية . لكن المجتمعات
التي اقتدت بالحضارة الغربية ، دون وعي اجتماعي ، أو
شعور انساني بالوعي الفردي ، ودون عقيدة ، بل بمجرد
نهضة كاذبة ، قد ظلت مستثمرة للحضارة الغربية ،
مستهلكة على الدوام ، وخاضعة للذل والعبودية تحت
سيطرة الغرب ، والامثلة والنماذج على ذلك متوفرة
وكثيرة !! .

ما أقرب الانسان وهو بعيد !

ان الذي أريد قوله : هو ان الدين^(١) ، الدين الذي هو فوق العلم ؛ يعتبر الانسان ذاتاً أرقى وأشرف من جميع المظاهر الطبيعية ؛ هذا هو اعتقاد الدين ، واعتقاد « الاكزيستانسياليين » ايضاً ، وسارتق نفسه ، الذي لم يؤمن بالله ، يعتبر الانسان ذاتاً منفصلة عن جميع كائنات الطبيعة ، وعنده أن الانسان قطع حبل اتصاله بالسما ،

(١) اردت بالدين ، غير الدين المتوارث حسب السنن والعادات ، لان الأديان الوراثية كلها متشابهة ، ولأن الشيء الذي يُتخذُ وراثته وسُنّة واعتياداً من غير علم وبصيرة ، كيفما كان ومهما كان هو مردود : ولا فرق في ذلك بين الأديان والمذاهب ، حيث لا درجات في الجهل . لذا فإن البحث يدور على « الدين الأرقى من العلم » لا الدين الذي يُقنّ تلقيناً ، وتسلمه الخلف عن السلف ، كمجموعة عادات وسنن تقليدية مكررة . ان الجيل السوعي يرفض هذا ، ولا يستمع له ، ورفضه شيء طبيعي ، وان لم يكن قد ألقى هذه السنن والخصائص الموروثة اللاعقلية في المهملات ، فإنه سيلقيها غداً . إن هذا شيء محتوم ، يفرضه الوعي . وتلك بادرة راقية اتطلع الى خط سيرها ، وأفكر فيه . يتمرد الجيل الوراثي الايراني ، على السنن اللاعقلية ، التي حُمِلت اليه ، فيرفضها كلها أولاً ، ثم يصل الى مرحلة فارغة تماماً ؛ هي الوجع والاضطراب ، والبحث والريبة ، والحاجة الى استكشاف الطريق الذي يجده في النهاية . واكتشاف الدين بعد رفض السنن الوراثية المتحجرة ، هو الشيء الذي يحصل اليوم ، لا على مستوى ايران فحسب ، بل على مستوى المثقفين في العالم كله . انه الدين الذي يتجاوز الفلسفة والعلم والصنعة ، انه دين المعرفة والتنبيه ، لا دين السنن الوراثية المنصرمة التي لا يُعرف تاريخها ، أهو الى ما قبل الفتي سنة ؟ أم الى =

ووكل امره الى نفسه ، فهو الذي يصنعها ، ويصنع مصيره
وهو رب نفسه ، مسلط على الطبيعة ومسخر لقواها ،
خلافاً لسائر الكائنات المخلوقة من الطبيعة والمستسلمة
لها . ومن هنا ؛ الكائنات المخلوقة من الطبيعة والمستسلمة
لها . ومن هنا ؛ نرى أن الدين « والاكرزيستانسياليسم »
و « الاماينسم » يلتقون في نقطة واحدة ، تعرف بأصالة
الانسان ، ورجحان ذاته على جميع مظاهر الطبيعة .

لقد رفع الاسلام قدر الانسان ، واکرمه الى حد قصرت
ان ترفعه اليه المكاتب الاومانيسيتية المصرة على رفعه
واجلاله ، حيث جعله الاسلام صفوة الله ، وخليفته بين
الكائنات ، وسخر له كل قوى الطبيعة ، وأمر ملائكته
بالسجود أمامه ، والتسليم له بالعبودية . أما عمله
كعمل الله تماماً ، وبإمكانه ان يشابهه في العمل ، في عالم
المادة وفي عالم-الطبيعة ، إن باستطاعته أن يكون خالقاً ،
عارفاً ، مدبراً ومختاراً مطلق القيد من أي جبر . وهذه
الصفات الخاصة بالله ، نُسبت للانسان في الاسلام
بدرجات منخفضة . عارف ذو ارادة ، مختار خالق ، مغير
متمرد ، ومسخر لكل انظمة الطبيعة ، ومغير لمصيره
التاريخي ولمجتمعه وحتى لذاته .

= زمان ناصر الدين شاه ؟! وكل ما في الامر ، أنها اصحت مقدسة لقدمها .

في كل يوم :

هذا الموجود ، ذو القيم الالهية ، يسعى خلف رزقه اليومي ، الرزق القاتل للانسان الحي ، انه الهوة التي تغور فيها أعز قيم الانسان الالهية كل يوم . الحياة اليومية ، تلك الدورة الرتيبة التي فرضت وجودها على كل المخلوقات ، من الجراثيم الى الحيوانات ، يقع الانسان في دورانها الأحمق ؛ يأكل وينام ، ثم يستيقظ ليكدح ويأكل ، ثم يعود يأكل ليكدح فيرتاح ، ومن ثم ليعمل وقت فراغه ، وكيفما نظرت تراه في دوران عمل ومتعب ، انتاج للاستهلاك ، واستهلاك للانتاج ، إنها مسيرة الانسان في وقتنا الحاضر ، وكذلك كانت في الماضي ، شرقياً كان أم غربياً ، وفي هذا الدوران الباطل تطراً على الانسان مشاعر خاصة ! عقد نفسية ، ضغائن ، اهواء ، وآلام خاصة تُعجزُ الانسان النبيه . .

قد تشاهدون احياناً احدكم يشكو ويعتب ، ويضع ليعرب عن ألم هو مضحك جداً ! وينبغي أن نضحك من بلاهته !! ولو أعددنا قائمة بمجموعة الاشياء التي نتمناها في حياتنا اليومية ، او نأمل الحصول عليها لننعم بها ، او نغبط الآخرين لوجودها لديهم ، ونسعى للحصول عليها ؛ ولا حظنا ذلك بوعي وانتباه ؛ لاستنكرنا انفسنا ،

واستقبحنا وجودنا ، واستعينا حياتنا ، لأن الانسان عندما يُدرك هذه الاشياء تدريجياً ، يدرك القضايا الخارجة عن اطار نفسه وبيته . فيشعر براحة مثلاً لشيء في بيته ليس له مثيل في بيوت الآخرين ، واذا ساعدته الظروف قد يتمكن من شراء قطعة قماش ثمينة ، او قد يتأخر في الحضور ، فيشتريها غيره ، ويلبسها في المحافل بدلاً منه ، وعندئذ تعلو الصرخة ، ويلاه !! ما أبأسه وما اشقاه !! ثم ما أكثر اللذات والخسرات والتنهيدات ، ومن ثم التضحية بكل شيء ، من أجل الحصول على أبخس الأشياء ! ان هذا الانسان ، الذي يَحْتال فخراً ، ويعلو برأسه الى عنان السماء ، نراه يتقبل الذل الى حد يأباه الكلب ، من اجل أدنى رتبة وأحقر درجة ، بل وحتى من أجل خيال !! من هنا ، نعرف قابلية الانسان للصلافة والشقاء ؛ إنها ما وراء كل الموجدات .

وقد ترون انساناً يكاد أن يُصاب بنوبة قاتلة ، وهو من شدة الفرحه يجول في داره ويرقص ؛ لماذا ؟ لأنه لمح سيارة الرئيس في الدائرة صباحاً ، فرأى في نظرتة اليه شيئاً من الرضى . نصف بسمة ظهرت على شفتي الرئيس ، كما تظهر على شفتي صاحب الكلب حينما ينظر الى كلبه ، حركت فيه اللذائذ ! . . . ولو اعددنا قائمة بأسياء الأشياء

التي نطلق عليها اسم اللذة ، الأشياء التي ما زالت تجول في أذهاننا ، ونسعى للحصول عليها ؛ مهما كانت ، لباساً ، سيارة ، داراً ، درجة دراسة ، او مقاماً لرأينا أي غاٍ ونفيس نصحي به من أجلها ! نصحي بالزمان والانسان ، بالذكاء والنباهة ، بالقابلية والفخر الالهي ، بإمكانية التمرد ، بقابلية الاختيار الحر ، بقابلية قوة الرفض ، بقوة البناء والتشييد ، بقوة التغيير ، بقوة تبديل المصير ، بقوة الرفض لكل ما حملنا ، واستبدال ما نريد .

نفدي كل هذه الأمور ، دون أن نشعر بها ، ودون أن نملك لحظة من الزمان من أجل ان نتأمل فيها . وهكذا ؛ نجد الانسان في حياته اليومية متجهاً الى خارجه دائماً ، ومقبلاً على ما يوفر له اللذائذ ، ومائلاً نحو شهواته ، ونجد « أنا » تلك التي هي من الله تهبط من العرش ، الى الحضيض لتغمس كالودودة في الماء المتعفن بالأقذار . ومن ثم ؛ تنقطع « أنا » ذات الوجود المتصل ، قطعة قطعة ، وتقع كل قطعة منها في مصيدة شهوة قذرة ، وهوى أجوف ، وأمنية سخيفة !! وحاصل ذلك ، التضحية بأعز الأشياء من أجل الحصول على أسخفها وأقذرها !

هزة :

لا اريد ان انصح اخلاقياً ؛ فالانسان يمضي ليصير الى الفناء ، أما قيمة الانسانية فتزداد دماراً بمرور الأيام . ان

أكبر قيم الإنسان ، تلك التي بدأ منها ، وهي الرفض و
« عدم التسليم » وما يلخص بكلمة « لا » حيث منها بدأ
آدم أبو البشر . لقد أُمرَ أن لا يأكل من تلك الثمرة ،
لكنه أكل ، فصار بعدئذ آدم ، وصار بشراً ، وهبط الى
الأرض ؛ ولولا ذلك لصار ملكاً ، وصار غيره آدم .
وأول ما يبدأ آدم بهدمه في حياته اليومية هو التمرد ،
التمرد الذي يجعله مشابهاً لربه في الكون ؛ لماذا ؟ قد
يكون من أجل دَينٍ ، وقعَ للوفاء به سفتجات^(١) على مدى
سنتين او ثلاث او أربع ، ولا يمكنه الانكار بعد ذلك ،
ولا يسعه إلا أن يقول ، عند المطالبة به ! سمعاً وطاعة ،
لأن الدين موزع على سفتجات حسب راتبه وامكانياته .
ومن هنا ، نرى ان صفته الالهية تذهب ضحية ثلاجة او
دار او سيارة ، وهذا الانسان لا يدري أي شيء خسر ،
وأي شيء ناله بدل الذي خسره ، ولا يدري بأي شيء
يتلذذ ، وكم هو قدر لذته بنعمة السيارة التي ضمن من
أجلها بعدم استسلامه ، وقابلية الوهيته ، وكونه خليفة الله
في أرضه حتى يساوي لذة تمرد ورفضه . لا شك أن من
أدرك لذة التمرد والرفض والنباهة لن يبذلها بأي شيء ،
ولن يبيعها مهما غلا الثمن ، لكن ؛ ما الذي حدث حتى

(١) صكوك .

بدلنا ذلك بسهولة ؟ ! انه لا نباهة لنا ، ونحن لا نستقيم
إلا بعد أن تعلونا يد قوية ، او يُظَلَّلَ علينا بسوط قاسٍ .
ان تلك اليد ترفعنا ، من غفلة شغلنا الاداري والعائلي ،
وحتى من نومنا ، لنشعر بما مضى من الزمان ، وما فات
من العمر ، وكم بقي منه ، وكم سوفنا من الفرص ، وكم
ضيّعنا من النعم والقيم لانشغالنا بغيرها . وبعد : ان
تلك اليد تخرجنا من بين الأقدار ، وتجففنا تحت اشعة
الشمس ، ثم تضربنا بشدة منبهة : ايها الانسان ! أنت !
أنت !! .

العبث

ولنضرب مثلاً ؛ هذا « ابراهيم الأدهم » . رجل لاخير
فيه ، ولا معنى له ؛ ذو ثروة طائلة ، لكنه عاطل عن
العمل ، ولا شغل له إلا الصيد . غيره يكدح ، وهو
يأكل . ماذا يعمل اذا ؟ إنه يذهب الى الصيد ، لقد اعتاد
عليه حتى أنس به ، وصار همه الوحيد ، تراه يهش اذا
اصطاد وحشاً ، فيمتلأ به سروراً وقهقهة . وقد لا تكون له
حاجة بلحمه او بجلده ، سوى أنه يلتذ بذلك . إنه لداء
قذر ان ينصرف انسان بتلك العظمة كلها ، الى عمل
كمثل هذا ليُشَبِّعَ نزوة ويحقق لهواً ، انها فلسفة حياة

« ابراهيم الأدهم » ، إنها أسطورة ، لكنها أصدق من الواقع .

وبينما كان « ابراهيم » في صيده ذات يوم ، وقفت فرسه في مكانها ، ولم تتحرك ، كأن شخصاً وقف في وجهها ، وإذا بصوت كأنه الرعد ، يشق مسامعه : « يا ابراهيم ، ألهذا خلقتك الله ؟ » أحجم ابراهيم وتنبه ، لسنا واعين لأمر ننسبها الى انفسنا كذباً ، وفي الوقت نفسه ، نحن محرومون أكثر من أي شخص ، وقف ابراهيم ، وكأنه لأول مرة تعرف الى شخص ، أطلع على وجود عظيم ، وهكذا وقف « ابراهيم الأدهم » وتراجع ، ورجع انساناً يشعر الواحد امام رفيع درجته ، وعلو مقامه بالصغر والحقارة .

المتنعم بالذل :

هكذا كان ! اميراً يعيش في قفص أُعِدَّ له من الذهب ، كل شيء حوله قد هُيِّئَ له ، لقد عملوا له غابة ، وضعوا فيها صيداً ليكون جاهزاً له متى أراد ، وفي مكان آخر ؛ كانت مسابح ، وحول كل مسبح شجرة من النيلوفر بلون خاص : حدائق ، قاعات ، ملاهٍ ، راقصات ، وذات يوم خرج هذا من القفص ، فرأى ميتاً ، فسأل :

- ما هذا ؟
- هذا مصير الانسان !
- وأنا ايضاً !
- نعم !
- ما هو الموت ؟
- الموت حالة نصيب كل حي في نهاية عمره !
- وبعدها كيف يكون ؟
- كل واحد ، يتبدل الى جيفه ، مهما كان ، واينما كان !
- واذا ، حدث ورأى مريضاً ، قال :
- من هذا ؟
- مريض !!
- ما هو المريض ؟
- المرض عرض يصيب الانسان ، قبل موته صغيراً كان
- او كبيراً ، قوياً او ضعيفاً !
- يصيبني انا ايضاً ؟
- نعم ! المرض لا يهتم بحصار ولا جدار ولا حاجب !
- وبعده غدٍ : قد يقول :
- من هذا ؟ المنحنية قامته ؟؟
- هذا شيخ عجوز !
- هو مصير محتوم لكل انسان !
- وحتى لي انا ايضاً ؟

- نعم ، حتى أنت !!

وفي آخر ، قد يسأل :

- عن هذا ؟

- هذا سائل مسكين !

- ما هو السائل المسكين ؟

- هو الانسان ، ذو الفاقة ، الذي لا يملك إلا جفنة

الشحاذة ، ليكون طفيلياً عند هذا وذاك ليشبع بطنه

إن هذه الصدمات الاربع ، تنبه ذلك الرجل الذي يسرح

ويمرح في جنته ، غير منتبه ؛ يعيش في هدوء ورفاهية ،

وهو من كل شيء في جهل تام . هذه الصدمات الاربع

التي لا تعرف اميراً ولا « بودا » تنبهه . فيدرك فجأة في أي

راحة قدرة هو ، ووسط أي لذائذ مخوفة كان يعيش ، حتى

نسي في غوغاء تلك اللذات ثروات مجهولة ، وعندها

يتمرد ، والشئ الوحيد الذي يستطيع فعله ، هو أن يفر

« منها » جميعاً ، ودون حسرة للعودة ، او تفكير في

عطش ، او حاجة للحياة في قصر بنارس ! حرّاً ! حرّاً ! (١)

كسرأس شجر الخيزران طليقاً من قيد الاعوجاج ، وانت

الذي في أسر بيتك وثروتك وسعادتك ، كشجرة مليئة

بالثمار ، وقد تدلت أغصانها الى الارض ، وأوشكت على

(١) هدم نص عبارات بودا نفسه .

الانكسار ، لكن رؤوس أغصان شجر السرو الممتدة نحو الشمس لا تخضع لثقل حمل !! وأنت أنت !! يا من تجلى الله فيك ، أنت يا من خصيصةك ال « لا » أنت ! كالنيلوفر تحت أشعة الشمس ، تشع داخل مجهول لا تعلمه ، فاجعل وجودك ثميناً ، وابذ كل المظاهر والاهواء التي مزقت حياتنا اليومية ، فذهبنا ضحية شهوانتنا وأحقادنا وحسراتنا ، جانب تلك الامور السخيفة المحقرة للانسان ، التي جعلته لعبة ، وجسدت فيه خصائص حيوانات كالقار والذئب والخنزير . حيث نسي سيادته وعزته وألوهيته ، وكونه خليفة الله في أرضه ، نسي قابليته وقيمه التي لم تُعطَ لغيره ، وراح يستهلك نفسه ، ويُذللها ويعبدها لغيره ، ويتملق بسهولة ، غير شاعر أنه يضحي بكل انسانيته ، بالثناء الكاذب على غيره ، من أجل الحصول على بغيته . لكن الذي يُطاطىء رأسه ويتملق له ، فانه لا يعود انساناً !! انه لم يشعر بعد ، أنه في تعبده وخضوعه لغيره ، يخسر شيئاً لا يعرف ثمنه !!

امثال وحكم :

كان أحد المدرسين ، يعظني مواعظ مليئة بسوء الادب ، لكنها ، بليغة جداً . كان يعظني ويقول : إنه لا ينبغي على الانسان ان يكون شديداً على الآخرين ، بل

عليه ان يكون ذكياً محافظاً على منفعتيه ، فلا يُسَوِّفَ
الفرص . ومضى يقول : ان شخصاً آخر كان ينصحه ،
ويقول : ان هذه اللحية ، (اللحية من علائم شرف
الرجل ووقاره) ليست ذات اهمية ، وقد تقضي الظروف
والمنافع أحياناً ، ان يضعها الانسان في ما تحت الحمار !
أجل . . من أجل المنافع ، ثم يُخرجها فيغسلها
« بالشامبو » والصابون ، ويُعْطِرُهَا ، حتى تعود لحية ولا
شيء عليها ! ولم ينقص منها شيء ؛ بل تكون قد قضت
حاجته ايضاً ! هذه هي فلسفة حياتنا قد ظهرت بوقاحة ،
لكن أعمالنا بدت أوقع منها !! .

الفصل الثاني

إن الشيء الذي يدفعني الى نفسي ، ويدعوني دائماً من خارج هذه المشاغل ، التي غالباً ما تجعلني ضحية لها ، هو (النباهة الفردية) . أوالنباهة النفسية تلك التي تدفعني كل حين ، لأرى نفسي ، مع أنه ليس من أحد ، يرى صورته الحقيقية نصب عينيه ؛ حتى اولئك الذين يقفون أمام المرأة ثلاث او أربع ساعات كل يوم ، ما اتفق مرة أن رأوا أنفسهم ! فالمعرفة النفسية إذاً ، او الدراية الفردية أو النباهة الموجودة عند الفرد ، بالنسبة لنفسه ، هي فوق معرفة الفلسفة والعلم والصناعة . فالأخيرة معرفة ، لكنها ليست « معرفة نفسية » أي ليست الشيء الذي يريني نفسي على حقيقتها ، فيستخرجني ليعرفني ذاتي ،

وباختصار ، ليست الشيء الذي يلفت انتباهي الى قدرتي
وقيمتي . حقاً : إن قيمة كل واحد منا على قدر ايمانه
بنفسه . ولو نظرنا الى انظمتنا التربوية والاجتماعية ، لرأينا
مأساتنا بوضوح ، فكم حقرونا في هذا المجال ؟! لقد
أذلونا الى حد ، بتنا معه لا نؤمن بقابليات قدراتنا ذاتها ،
أصبحنا نرى انفسنا في عجزٍ تأباه حتى فراخ الحيوانات !!
فنحن عاجزون عن الانتقاد ، عن الاستفسار ، وحتى عن
الكلام ! صرنا ، لا نجرأ ان نتصور اننا قادرون على أي
عمل صغير ! نعم . . . بلغنا هذا المستوى من الضعف
وعدم الثقة بالنفس !! ولا شك ، أن الجيل الذي يستحق
نفسه بنفسه ، يكون حقيراً ايضاً ، فسياسة الاستعباد ،
حتى يظن هذا الاخير نفسه من أسرة منحطة ، وطبقة
دنيا ، فيسهل عليه عندئذ تقبل المذلة بصدرٍ رحب ،
ويلجأ مستسلماً الى حضن الرق والعبودية .

أصغر فأصغر :

... ماذا عمل بنا الغرب نحن المسلمين ، نحن
الشرقيين ؟ لقد احتقر ديننا ، أدبنا ، فكرنا ، ماضينا ،
تاريخنا وأصالتنا ، لقد استصغر كل شيء لنا ، الى حد
أخذنا معه نهزأ بانفسنا !! أما الغربيون فقد فضلوا أنفسهم
وأعزوها ورفعوها ، ورحنا نحن نقلدهم في الأزياء

والأطوار والحركات والكلام والمناسبات ، وبلغ بنا الأمر أن المثقفين عندنا صاروا يفخسون بأنهم نسوا لغتهم الأصلية !! ما هذه السخافة ؟ هكذا يفخر الإنسان بفقد شعوره ! إنه لأمر عجيب . ! أفلا يكفي الواحد منا فخراً أنه تعلم اللغة الافرنجية ، حتى يفخر ايضاً بأنه نسي لغته الأصلية ؟ ! وما أشبهه عندئذ بالطفل ، الذي تهبه أمه ، وتضربه فيلجأ اليها ليأمن سخطها ! هكذا يلجأ العنصر الذي يعتبر نفسه راقياً ، والشعب الذي يعتز بتمدنه وحضارته لتحقير أقوام أخرى ، لأجل السيطرة عليها واستعمارها ، يعمل الأجنبي إذاً على تحقير دين الشرقي ، وإيمانه ، أدبه وفكره ، كبار رجاله ، ماضيه وكل ما لديه ، حتى يفر المهان من تلك الأمور التي سببت إهائته ، والاستخفاف به ، ويلجأ الى المصدر الذي شُنِعَ عليه وأعابه ، فيُخْرِجَ نفسه على شاكلته ، لئلا يقع في إطار تهمته وتشنيعه .

ومن هنا نرى أن بعض الأشياء نموزجية ! ١٥ ٪ من مجموع الأوروبيين يأنسون مثلاً بالتلحين الكلاسيكي ، أما الإيرانيون فكلهم يحفلون بجميع انواع التلحين ! ومن الذي يجراً ألا يأنس ، فيخالف نمودج الطبع الأفضل ، والذوق المفضل ؟؟ وللافرنجي أن يُقَرَّبَ عن رأيه

بسهولة ، ويقول : اقطع صوت الراديو ، لأي شيء ؟
لأنه نموذج من المثل الأعلى !

إن الإيمان بالنفس ، يوفر للإنسان شيئاً واحداً هو
« الوعي النفسي » ، هو أن يعرف في الدرجة الأولى ،
لأي عرق وأصل ينتسب ، وبأي أمة يرتبط ، وإلى أي
تاريخ ، وأي حضارة ، وأي فترة زمنية ، وأي أدب
ينتمي ، وإلى أي مجدٍ وقيمٍ يمت !! هذه عودة إلى « الوعي
النفسي » وفوق هذا ، إلى « الوعي الوجودي » الوعي
الذي يجعلني أشعر بنفسي ، كموجود إنساني في ذروة
الوهيته . وهكذا ؛ عندما أجد نفسي بتلك المظاهر ،
أعرفها تماماً ، وأنسُ بها ، ولا أعود أتخلى عنها بأي ثمن ،
ولا يعود ممكناً ، المساومة على جزء من لحظات وجودي ،
وخصوصاً إن عرفتُ من « أنا » ! هذه ال « أنا » . تكون
عظيمة بعظمة الكائنات ، إن هي اكتشفت نفسها قليلاً ،
وبلغت « وعيها النفسي » .

مجتمع النباهة

المسألة الثانية ، التي اسميها « ثقافة » هي الوعي
السياسي بالمعنى الأفلاطوني للسياسة ، لا بمعناها الصحفي
اليومي ، بل بالمعنى الأفلاطوني للبحث المنتخب
الأختياري . أي شعور الفرد بمرحلة المصير التاريخي

والاجتماعي للمجتمع ، وعلاقته به ، وعلاقته بأبناء شعبه وأمته ، والشعور بانضمامه وارتباطه للمجتمع ، وشعوره بمسؤوليته كرائد ، وقائد في الطليعة من أجل الهداية والقيادة والتحرير . وكل هذه بمثابة مسؤولية ثانية للإنسان ، حيث ثقافته في ثباته ، وتحصينه ضد الاستلاب .

مراوغة

النباهة إذاً نباهتان : « نباهة نفسية او فردية » و « نباهة اجتماعية » . وهي التي يأتي بياؤها الآن . فعُدوي انا كإنسان ، وعدونا نحن كمجتمع انساني او عقائدي ، هو الذي يسلب منا الوعي الأول ، والوعي الثاني ، ولا يعرضنا عنهما إلا جهلاً وفقراً وذكلاً ، وحتى ، لو عوضنا معرفة ، فهو عدو ، لأنه يعطينا معرفة فلسفية او فنية او علمية ، ويستلب منا عوضاً عنها النباهة النفسية ، والنباهة الاجتماعية أيضاً ، تلك النباهة التي اختص بها الأنبياء في التاريخ^(١) ، يستلبها ، أو يعمل على تضعيفها فينا ، لا

(١) ما كان الأنبياء فلاسفة ، ولا فنيين ، ولا أدباء ، ولا شعراء ، ولا علماء جمال ، بل كانوا أميين من عوام الناس ، لكن ، لديهم نباهة ووعياً للزمان ، ومن أجل هذا شرعوا مسيراً للتدريج ، وحركوا فصنعوا حضارة ، وغيروا مصير مجتمعاتهم أكثر من أي حكيم ، وأحسن من أي ذي فكر ، وأي عالم ، وأكثر من أي كاتب وأديب . هذه المعرفة النبوية يمكن ان تكون حتى للفرقة =

فرق ، فإن علمنا ذلك ، فإن سائر القضايا تكون واضحة ، وسنفيد في تخمين ومقايسة كل الأمور التي تحيط بنا .

لم يعد العدو كالسابق ، فهو لا يأتينا بعدة حربه ، كالخوذة والسيف ، يقتل ويذبح ، ثم يعود من حيث جاء فتعرف بسرعة أنه عدو . لا ، ليس كما تظنون ، إنه يظهر من أكمام ثيابنا ، نعم يظهر من كم الثوب ، لا ، كما مضى حاملاً سوطه ، يسوقه الناس الى صناديق الاقتراع لأخذ الرأي ، لقد اختفى ذلك السوط ، وصار في دماغ العامل ، يسوقه نحو صندوق الاقتراع ! وقد سواه على النحر الذي يمكنه من أن يصوت بحرية ، لأي شاء . وإن كان من غير الواضح بعد ، كيف يختار العامل بين « غولد ووتر او جونسون » نعم ، إنه حر في تصويته ، لكن لا يريد غير هذين الاثنين ! وستكون النتيجة واحدة لأيهما شاء ان يصوت !! .

اللعبة التوقيتية :

أقول : إنه كما تُصنَعُ الأواني اليوم من مادة المطاط ، بعد وضع مادتها الخام في جرة ، فتذوب ، ثم تُصَبُّ في

=الأمي ، ويمكن ان يكون الانسان عالماً بالمفعول والمنقول ، ولديه العلوم الحديثة والقديمة ، لكنه بعيد عن تلك المعرفة النبوية الاجتماعية .

حُفِرِ أُعِدَّتْ عَلَى أَشْكَالِ الْأَوَانِي ، لِيُسْتَتَجَّ مِنْهَا الْإِبْرِيْقُ
وَالْقَدَحُ وَالْكَأْسُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الْأَدْوَاتِ الَّتِي تُعْرَضُ فِي
السُّوقِ لِلْبَيْعِ ؛ هَكَذَا أَخَذُوا يَصْنَعُونَ الْإِنْسَانَ ! يَصْنَعُونَ
الْجِيلَ ! تَعْقُدُ جُلُوسَةً مُشْتَرَكَةً لِعَالَمِ النَّفْسِ ، وَعَالَمِ
الْاجْتِمَاعِ ، وَالْمُؤَرِّخِ ، وَعَالَمِ الْاِقْتِصَادِ ، وَخَصِيصِ التَّرْبِيَةِ
وَالتَّعْلِيمِ ، يَجْلِسُ هَؤُلَاءِ مَعاً ، يَتَذَاكَرُونَ فِيهَا بَيْنَهُمْ ،
تَمْدَهُمُ الثَّرْوَةُ ، وَتَسَانِدُهُمُ الْقُوَّةُ ، وَيُطْلَبُ مِنْهُمْ :

- خَطِّطُوا !

- سَمِعاً وَطَاعَةً ، لَكِنْ ؛ أَيُّ إِنْسَانٍ تَرِيدُونَ ؟ تَفْضَلُوا كَيْ
نَعْمَلُ !

- نَرِيدُ فِي هَذَا الْمَجْتَمَعِ ، الْإِفْرِيْقِي أَوِ الْأَسِيَوِي أَوِ
الْأَمِيرَكِي اللَّاتِينِي ، جَيْلاً غَيْرَ قَدِيمٍ ، لَا يَكُونُ أَبْلَهُ
يُخَضِّبُ رَأْسَهُ بِالْحَنَاءِ ، لَكِنْ لَيْسَ عِنْدَنَا حَنَاءٌ لَدِينَا ،
أَدْوَاتٌ لِلزَّيْنَةِ ، نَرِيدُ أَنْ نُوْزِعَهَا هُنَاكَ فَلَا يَبْقَى مِنْهَا
شَيْءٌ ، نَعَمْ ! نَرِيدُ جَيْلاً لَطِيفاً ظَرِيفاً جَمِيلاً ، عَسَارِيّاً مِنْ
الشُّعُورِ تَمَاماً طَبَقاً لِلْمَقَائِيْسِ الْعَالِيَةِ ! نَعَمْ هَذَا الَّذِي
نَرِيدُهُ لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ !

- سَمِعاً وَطَاعَةً ! سَيَكُونُ بَعْدَ أَرْبَعِ سِنَوَاتٍ جَاهِزاً ،
وَنَضْعُهُ فِي تَصَرُّفِكُمْ ! وَفَجْأَةً ، وَخِلَالِ عَشْرِ سِنَوَاتٍ مِنْ
سَنَةِ ١٩٤٥ إِلَى سَنَةِ ١٩٥٥ ، تَرَى أَنَّ مَقْدَارَ أَدْوَاتِ

الزينة الأوروبية ولوازمها قد ارتفع في طهران الى خمسمائة ضعف .

- جيد ، كيف نصنع هذا الجيل ؟

- نحتاج الى جيل يرفض الشكل القديم للحياة ، وينكره ، ذي فكر جديد ، لكن ، بالقدر المعتاد لا أكثر . لأنه إذا ازداد تجدد فكره ذرة واحدة سيكون مضرراً !! والمطلوب ان يكون له طبع لطيف فلا يشرب اللبن ، بل يشرب الكوكاكولا .

الى هذا الحد فقط ، وإذا تجاوز هذا المقدار ، فإنه يسبب لنا المخاطر والمشاكل ، ويحملنا المبالغ الكبيرة ! نعم ، هذا المقدار يكفي ! يكفي أن يتجدد الى حد يكون معه لطيفاً ، فيخلع الأزياء القديمة ، ويلقيها في سلة النسيان لكن ، لا يتجاوز شعوره الى حد يجعله يتدع أو يختار نوع أو لون أزيائه من تلقاء نفسه . وكأنهم يقولون : إن الأمر لا يرتبط بك ، فأنت لست انساناً حتى تختار !! قلنا ، إخلع ملابسك فقط لا أكثر . . . نعم ، يكون تجدده الى حد إذا قلنا معه « هو » وإن قلنا « ها » ردّد هو ايضاً « ها » « ها » ! عليه ألا يفوه بكلمة من نفسه ، هكذا نحتاجه نحن !! .

- سمعاً وطاعة ، سنصنعه كما تريدون تماماً ، بلا اختلاف ! .

وَيُصْنَعُ ذَاكَ الْإِنْسَانُ ، يُصْنَعُ عَلَى شَكْلِ يُضْرَبُ فِيهِ الْمَثَلُ ، وَعَلَى نَحْوِ الَّذِي يَبِيعُ الثَّلَاجَاتُ فِي الْأَسْكِمُو ، يَبِيعُ التَّمْرَ فِي حَجَرٍ ، وَيَبِيعُ سَيَّارَةَ الرِّينُو الْمَصْنُوعَةَ مِنَ الذَّهَبِ لِرَئِيسِ قَبِيلَةِ أَفْرِيقِيَّةٍ ! وَهَكَذَا ، يَصْنَعُونَ سَيَّارَةَ الرِّينُو عَلَى ظَهْرِ جَمَلٍ ، وَيَحْمِلُونَهَا إِلَى رَئِيسِ قَبِيلَةٍ ، حَيْثُ لَا تَوْجَدُ فِي أَرْضِهِ جَادَةٌ بِطُولِ كِيلُومَتْرَيْنِ اثْنَيْنِ ، فَتَرْبِطُ السَّيَّارَةَ أَمَامَ قَلْعَتِهِ ، نَعَمْ هَكَذَا يَصْنَعُونَ !! وَنَحْنُ ، لَمْ نَشْعُرْ بَعْدَ كَيْفِ صَارَ الْأَمْرُ ، حَتَّى بَلَّغْنَا بَعْدَ عَشْرِ سِنَوَاتٍ تِلْكَ الْحَالَةَ ، وَلَمْ نُدْرِكْ مَا خَسَرْنَاهُ مُقَابِلَ هَذِهِ التَّغْيِيرَاتِ وَالتَّطَوُّرَاتِ ! وَأَيُّ شَيْءٍ هُنَا ، يُمْكِنُ أَنْ يَلْفَتَ انْتِبَاهُنَا إِلَى أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ اللَّهَ ، قَدْ بَلَغَ مِنَ الْإِنْحِطَاطِ حَدًّا جَعَلَهُ يَحْفَلُ بِالرِّذَائِلِ وَيَأْنَسُ بِهَا . نَعَمْ ! أَيُّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يَلْفَتَ انْتِبَاهُكَ - أَيُّهَا الْإِنْسَانُ - إِلَى مَا ضَحِيَّتُهُ مُقَابِلَ هَذِهِ الْأُلْهِيَّاتِ وَالْأَلْعُوبَاتِ ؟ ! وَإِذَا كَانَتِ الْعَيْنُ وَالشُّعُورُ وَالْمَعْرِفَةُ ، وَكُلُّ الْمَحَاسِنِ وَالْمَقَابِيسِ تَرُدُّنَا مِنْهُمْ ، فَنَأْنَسُ بِاللَّوْنِ الَّذِي يَرِيدُونَ ، وَنَسْتَذُوقُ الطَّعَامَ الَّذِي يَأْلِفُونَ ، فَمَنْ الَّذِي يَقْدِرُ إِذَا أَنْ يُشْعِرَنَا بِالَّذِي خَسَرْنَاهُ ؟ وَالَّذِي بَقِيَ مَجْهُولًا مُقَابِلَ تِلْكَ الْأُمُورِ ؟ .

ان الوعي النفسي « النباهة » يمكن أن تُشعر الانسان بما فات منه ، هذا الانسان ، الذي تجاوز الحد في الاقتداء والاستهلاك لكل ما يقدم له ! ويمكن ايضا للوعي الاجتماعي ان يُشعره كيف تجري أمور مجتمعة في الخفاء ! نعم ! ان الدرايتين النفسية والاجتماعية هما الشيء الوحيد الذي باستطاعته ان يُنجي الانسان من هذه البلاءة المتطورة الحديثة المغربية . حقاً ، ونحن نسمي الدراية النفسية نباهة فردية ، والدراية الاجتماعية نباهة اجتماعية .

عون الظلمة :

مهما تطور الفن - الصناعة - فإنه ليس إلا طريقاً للتعجيل في خسارة الانسان ، وفقدانه نباهته الانسانية والاجتماعية ؛ والشعب الذي يفقد هاتين النباهتين ، يصبح مهندساً خيراً وسيلة لاستيراد البضائع الغربية الى بلاده ، وفنه دلال ظلم يمهّد الطريق للاستعمار ، وعالمه موظف أجير بالقوة والمال ، يستمد فكره ونهجه في التحقيق من الأجنبي داخل البلاد وخارجها . وهكذا ، نرى أن أدمغة العالم الثالث ، تنقسم الى قسمين ! قسم منها يصدر الى الخارج ، ليستهلك في تلك الأجهزة العظيمة ، باذلاً نبوغه وقابليته في خدمة الأجنبي ، غير

عابء بما قد يخسر ، مقابل ألفي تومان تُصَافُ على
الراتب ! . وقسم يعود الى البلاد ، ليشكل الدعامة
الخامسة للبلاد ، للاستهلاك الأجنبي ، وهكذا تُصبح
مهمة الأديب والمحقق والفيلسوف استنزاف الأفكار و
تحجيرها ، وتغيير الأذهان وتحريفها ؛ ويقوم الفنيون
والفيزيائيون والكيميائيون بمهمة تسمينهم !!

قبل ثلاثين سنة ، لم يكن في افريقيا مهندس افريقي
واحد ! ولذلك ، كان المتمولون الفرنسيون ، وأصحاب
رؤوس الأموال يأتون بالمهندسين من فرنسا ، ويُجرون
لهم شهرياً خمسين الف تومان . اما الان ، وقد شاء الله
ان يكون بين الأفريقيين مهندسون منهم ، يصلحون
لنفس العمل ، الذي كان منوطاً بالأجانب ، فإنهم
يتقاضون ألفي تومان فقط !

إن الشيء الذي ينجي الانسان والأمة من شؤم
الاستنزاف الفكري في طريقته القديمة والحديثة ، هو
النباهة الانسانية ، التي يتحدث عنها الدين الراقى الذي
تجاوز العلم ، والدراية الاجتماعية التي تتحدث عنها
الرسالة العقائدية النبوية . وينبغي ان تكون هاتان
الدرايتان مقياساً لكل انسان ، وبالأخص للعالم الثالث ،
وفي المجتمعات الشرقية والاسلامية . وهؤلاء جميعاً

سيخسرون إذا ما نظروا للمسائل بغير هذا المقياس .
فالمزورون اليوم ليسوا العوبة ، إنهم يصنعون في الأساس
عيناً ونظرة ، ولذا ، فالافلات من مصائدهم ، والخروج
من مضايقتهم ، وكشف مخططاتهم ، يستلزم للانسان ان
يبصر ، ويعلم في أي مؤامرة غريبة معقدة يدور ،
وبعدها أي شيء يريدون فعله بهذا الجيل !! ومن يغفل
عن هذا ، سيكون ضحية لمديّة في ايديهم ، يُسرّ لظغطهم
عليه ، ويرقص لذبحهم إياه ! إن بلاهة وحماسة مدهشة
للغاية ، كمثل هذه تُصيب الأجيال في العالم أجمع ، حتى
في الغرب نفسه ايضاً ! . لكن الناس هناك ، هم غير
تلك الأيدي والضمائر التي نقرر المصير في الشرق .

الفصل الثالث

الاستحمار

لا بد من مقياس للتطبيق ؛ فعينان ونظرتان ، ودراية انسانية ودراية اجتماعية . وأي دعوة أو دعاية ، أي كلام او تقدم ، أي حضارة او ثقافة وأي قدرة تكون خارجة عن اطار هاتين الدرايتين ، ليست إلا تحذيراً للأفكار ، للانصراف عن الانسانية والاستقلال والحرية . وهذا التحذير وهذا الانصراف هما تسخير للانسان كما يسخر الحمار ، ومن هنا أطلق على هذا العمل اسم « الاستحمار » .

أما الدافع لهذا الاستحمار ، فقد بلغ في زماننا درجة من القوة والشبوع ، لم يسبق لها نظير على مر التاريخ ، كان الاستحمار في الماضي وقفاً على نبوغ المستحمرين

وتجاربهم ، أما اليوم ، فقد أصبح معزراً « بالعلم »
« بالاذاعة والتلفزيون » ، « بالتربية والتعليم » وبجميع
وسائل الاعلام ، بالمعارض ويعلم النفس الحديث ، بعلم
الاجتماع ، ويعلم النفس التربوي ! صار فناً دقيقاً مجهزاً
بالعلم ؛ ومن هنا تصعب معرفته لصعوبته ودقته .

إن أي قضية ، فلسفية كانت او علمية ، أوفنية ، وحتى
لو كانت قضية تقدم المجتمع والحياة ، فإنها إذا كانت
منحرفة عن « النباهة الانسانية » و « النباهة
الاجتماعية » ، تظل دعوة كاذبة غاشمة مزورة ، عاقبتها
الغفلة والذل والعبودية . وما الفرق بين ان يكون الانسان
« عبداً حديثاً » او ان يكون « عبداً قديماً » ؟ وبين ان
تكون تلك « جارية حديثة » او « جارية قديمة » ؛ لافرق
إلا في الكلمات ، فذاك يسمى الجارية « ضعيفة » وذلك
يسمى « لطيفة » ، والمعنى واحد ، انها ليست بشراً .

فمعنى الاستحمار إذاً في تزيف ذهن الانسان ، ونباهته
وشعوره ، وتغيير مسيره عن « النباهة الانسانية » و
« النباهة الاجتماعية » . وأي دافع ، لتحريف الفرد أو
الجماعة عن هاتين النباهتين ، أو أبعد منها ، هو دافع
استحمار ! وإن كان من أكثر الدوافع قدسية . وما البعد

عن هاتين كذلك ، الا وقوع في العبودية ، والذهاب
ضحية لقوة العدو ، والاستحمام المطلق .

إنه لمن سوء الحظ ، ألا ندرك ما يُراد بنا ، فنُصَرَفَ عما
ينبغي ان نُفَكِّرَ فيه كأفراد ومجتمعات ، فيُصيب غيرنا
الهدف ، ونحن لا نشعر ! ومن أجل هذا قلت ، إنك إذا
لم تكن حاضراً الذهن في « الموقف » فكن أينما اردت .
والمهم أنك لم تحضر الموقف ، فكن أينما شئت ، واقفاً
للصلاة ، او جالساً للخمرة ، فكلاهما واحد .

ان المستعمرين قد لا يدعونك دائماً الى ما تشاء منه ،
حتى لا يثيروا انتباهك ، فتفر منهم الى المكان الذي ينبغي
ان تصير اليه ! بل هم يختارون دعوتك حسب حاجتهم ؛
فيدعونك احياناً الى ما تعتقده امراً طيباً من أجل القضاء
على حق كبير ، حق انسان او مجتمع ، وقد تدعى لتشغل
في حق آخر ، فيقضون هم على حق محق آخر .

عندما يشب حريق في بيت ، ويدعوك أحد للصلاة ،
والتضرع الى الله ، ينبغي عليك ان تعلم أنها دعوة
خائن ، لأن الاهتمام بغير إطفاء الحريق ، والانصراف عنه
الى عمل آخر ، هو الاستحمام ، وان كان عملاً
مقدساً ،

وقوفاً في الصلاة ، او انشغالاً بمطالعة أحسن الكتب العلمية والادبية ، أو مناجاة مع الله ؛ وأي شيء تشغل به في هذا المجال ، يفيد أن المسبب قد استعمرك . وإن أي جيل ينصرف عن التفكير في « الدراية الانسانية » كعقيدة واتجاه فكري ، ومسير حياتي ، وتحرك مداوم الى أي شيء حتى ولو كان مقدساً ، هو استحمار . وقد لا يدعوك الاستحمار الى القبائح والانحرافات أحياناً ، بل بالعكس ، قد يدعوك الى المحاسن ، ليصرفك عن الحقيقة التي يشعر هو بخطرها ، كيلا تفكر أنت بها ، فتنبهك الناس وهنا يغفل الانسان ، ويتجه نحو « جمال العمل » ، ولطافته غافلاً عن الشيء الذي ينبغي أن يعينه ، وهذا هو الاستحمار من طريق غير مباشر .

من التاريخ :

اتخذ بنو العباس سياسة غربية في تاريخ الاسلام ، فقد كان المسلمون قبل خلافتهم ، إذا أحسوا بخطر يهددهم ، أو رأوا ظلماً من الخليفة أو قرابته ، عطلوا أشغالهم ، وتركوا الاسواق ، وهرعوا الى المساجد ، يصيحون ويستغيثون ، ويدعون الخليفة للمحاكمة والعدل ! كان هذا شعور المسلمين الاجتماعي ، زمن النبي (ص) وفي عهد أبي

بكر وعمر وعلي ، وحتى على عهد بني أمية ! ومن
الواضح ، أنه لا يمكن حكم أناس كهؤلاء بالسهل
والدعة ، حيث يصعب الظلم ، والسيطرة عليهم مع هذه
الجرأة والجسارة ! لقد كانوا أهل دراية اجتماعية
وانسانية !! . لماذا ؟ لأنهم مسلمون ملتزمون اجتماعياً
بشدة وحرص ، اذا سمعوا الأذان هرعوا الى الصلاة ،
ليحاسبوا أنفسهم ، ويفكروا في مصيرهم ؛ . وحينما رأوا
الخليفة عمر ، ذلك الامبراطور الذي فتح لهم مصر وايران
وبلاد الروم ، يرتدي ثوباً ، من الغنائم الحربية ، وهو
أطول من اثوابهم بقليل ، علت أصواتهم بالمعارضة ،
وتقسيم الغنائم بالمساواة ، لقد صاحوا : لأي شيء ثوبك
أطول من ثيابنا ؟ وهم لا فرق عندهم بين عمر ،
أميرهم ، أمبراطور الشرق والغرب ، وبين جندي من
الجنود . لقد أجبروه على المحاكمة لأول مرة ، وبدلاً من
الثناء عليه ، واجلاله لفتح ايران والروم ، طالبوه
بالعدالة ! انظر الى شعور تلك الأمة ، والى اهتمامهم
والتزامهم بمصيرهم ، وهم يستطيعون ان يرفعوا ايران
المتحضرة في العهد الساساني بأطراف أصابعهم ، ويلقون
بها اينما شاؤوا ، وفعلاً قلعوها ، ولا يُعلم أين ذهبت !
ولهذا كانوا قادرين على فتح بلاد الروم كلها ، ولقد
استطاعوا فتح مصر ، واخضاعها بثلاثة آلاف رجل .

أناس يغيرون مجرى التاريخ ، ويهتمون بمصيرهم بدقة وولع !! لقد أجبروا عمر على الحضور الى المسجد ، ليجيب الناس بنفسه من غير ممثل او ناطق عنه ! ومن ثم ، يأتي بابنه عبد الله شاهداً معه ، ليخاطب الناس ويقول : ان سهمي من القماش لم يكفني ثوباً لطول قامتي ، وقد أعطاني ابني عبد الله سهمه من القماش ، فاضفته لصنع ثوبي هذا ، وباستطاعتكم ان تفتشوا ، وتبعثوا وكلاء منكم ، لتحقيقوا كيفما شئتم ؛ فإن عبد الله ليس عنده من هذه الغنيمة . . . وهكذا رأوا عمر بعد التحقيق .

واضح إذ أنه لا يمكن حكم هؤلاء بسهولة ، ولا بد من استنزافهم تلك « الدراية السياسية » التي يذكرها افلاطون ، وسلبهم تلك « الدراية الاجتماعية » النبوية النيرة التي ذكرتها . واذا سُلِبَتْ هذه ، لا يبقى بعدها شيء ذو خطر ، وإن شاؤوا أن يكونوا علماء أو فلاسفة ، فليس بذي أهمية ، حيث نصفهم كأبي علي ابن سينا والنصف الآخر كالحلاج وجميعهم ليسوا سوى خدم للخليفة . وهل كان ابن سينا ، الرجل الذي طبقت شهرته الآفاق ، غير قلم كاتب « لجلالة الخاقان » ؛ واضح ، أنه لو لم يكن ذا شعور لكان أفضل ! نعم . . . هكذا يصير الانسان إذا لم يكن له هدف ، ولا يفيد علمه ولا فنه ولا مكانته .

وماذا عن كبار علماء الفنون الجميلة ، وأهل الصنعة ؟ !
تراهم يصنعون « على قابو » ويصنعون « الف لية و ليلة »
في دار الخلافة في بغداد !! طبيعي أنه لو لم يكن لنا لكان
أفضل ! إذ ، ما هي فائدة هذا الفن ، وهذا العلم ؟ ! .

وبعد .. يأتي زمان بني العباس ، ويتزوج جعفر
البرمكي العباسية ، وتُعملُ وليمة الزفاف ، لقد طبخوا من
الطعام ، ما أُخْرِجَ باقية من بغداد بعد عدة أيام ، فإذا هو
جبل من الطعام ، وبعد أن تغدت منه الطيور والحيوانات
أياماً ، تعفن باقيه في المدينة ، وأخذ يهدد صحة الناس
وسلامتهم ، مما اضطرهم لاستئجار جماعة لابعاده عن
المدينة !! ولم يظهر رجل واحد من المسلمين في كل المجتمع
الاسلامي ليقول لهم : هذا الطعام الكثير إسراف في
الدين .. نعم ، لم يقل ذلك أحد ؛ لاعالم ولا فقيه ،
لا شاعر ولا نبيه ، لا إمام ولا مأموم ، .. لماذا ؟؟ لأن
« الدراية الاجتماعية » لم تكن عندهم !

وهؤلاء الناس الذين لم يبدوا اهتماماً لذلك ، كانوا
يجمعون معاً ويتحدثون ، ويتسامرون ويحتفلون ، لأنهم
اكتشفوا قاعدة نحوية للغة العربية ، او عثروا على كتاب
في الطب والأدوية ، يريدون أن يترجموه ليحصلوا على وزنه
ذهباً !! وهكذا ، بلغت الأبحاث الفلسفية والعلمية في

زمن بني العباس !! . غير أن هؤلاء لم يبقَ لهم شعور
بالنسبة لمصيرهم الاجتماعي ؛ فكانت النتيجة ، أنه يوم
دخول المغول ، واكتساحهم هذه الديار ، لم تبقَ لهم
حضارة ولا اقتدار ، ولا علوم ، ولا ذلك ؛ إلا لأن
« الدراية الاجتماعية » كانت عديمة ، وهكذا نجد أن دافع
الاستعمار في زمن بني العباس كان العلم والحضارة ، الفن
والادب ، التحقيق العلمي والفني ، الأدبي واللاأدبي .

الْفَضْلُ السَّامِعُ

انواع الاستحمار

الاستحمار نوعان : استحمار عتيق واستحمار حديث ، وهو كالاستعمار تماماً ؛ منه عتيق ، ومنه حديث . والاستحمار كما ذكرنا دافع لانحراف ، او طلسمه الذهن والهائه عن (الدراية الانسانية) و (الدراية الاجتماعية) ، واشغالة بحق او بباطل ، مقدس او غير مقدس . وهذا تعريف جامع للاستحمار .

كان الدين دافعاً قوياً للاستحمار القديم ، بينما الدافع للاستحمار الحديث هو كل تشاجر ، وتحارب ايهامي كاذب ، والوسائل التي تستخدم في هذا المجال هي :

في « الاستحمار القديم » يستفاد من الزهد ، الاخلاق ، التصوف ، الشعر ، القومية ، تعظيم الماضي

وتجليله ، الفلسفة ، الشكر ، الثواب ، الشفاعة ،
الوصول الفردي الى الجنة ودخولها . . . ، وفي الاستحمام
الحديث يُستفاد من (التخصص ، التحقيق ، العلم ،
القدرة ، التقدم ، الحرية الفردية ، الحرية الجنسية ، حرية
المرأة ، التقليد والتبعية) .

الدين الاستحماري

بعد انقضاء فترة الأنبياء العظام ، الذين بلغوا الدين
واضحاً وصادقاً في ذروة الحقيقة ؛ وقع مصير الدين في
أيدي قوات استحمارية ، مضادة للانسانية ، تسمى
بأسماء مختلفة : كالفتنة الروحانية ، والفتنة المعنوية ، والفتنة
الصوفية ، وفتنة الرهبان ، وفتنة القسيسين وغيرها . .
وهؤلاء اتخذوا الدين وسيلة لاستحمار الناس ، افراداً
وجماعات ، وحيث أن الدين يقتني بهم ، وبالأخص
الاسلام الحنيف الذي يشمل « الدراية الانسانية » و
« الدراية الاجتماعية » و « الدراية الفردية » .

ويدور كلامي هنا ، حول الدين الاستحماري ، الدين
المضلل ، الدين الحاكم ، شريك المال والشوة ، الدين
الذي تتولاه فئة من الرسميين ، لديهم بطاقات للدين ،
واجازات للاكتساب ، وفيهم علامات خاصة ، تتم عن
احتفاظهم بالدين ، وبأنهم من الدعاة .

والسؤال هنا : لأي شيء يُسَخَّر هذا الدين الناس
 كالخمير ؟ بلى ، ماذا يفعل هذا الدين بالإنسان
 فيستحمره ؟ علماً ، أنه ليس باستطاعة الدين أن يسلب من
 الإنسان « نباهته الفردية » و مسؤوليته عن مصيره
 ومجتمعه . لعله يقول لك : دع الدنيا ، فإن عاقبتها
 الموت ، وادخر كل هذه الحاجات والمشاعر والأمنيات إلى
 الآخرة ، إلى ما بعد الموت ! وليس الفاصل الزمني بكثير ،
 ثلاثون أو أربعون أو خمسون لا قيمة لها !! بعدها كل
 شيء طوع ارادتك ، وتكون من أولئك الذين هم فيها
 خالدون ! نعم . . . إنها سنوات العمر القصير ، لا قيمة
 لها ، دع الدنيا لأهلها ! ولا شك أنه يقصد بأهلها
 نفسه . . . وذلك الدين يسلب مني مسؤولياتي تجاه
 مجتمعي بطريقتين :

الأول : يأخذ مني امكانياتي ومواهبتي التي امتلكها ،
 ويحرمني منها ، ولما كان علي أن أرفض الظلم من أجل
 الحاجة إلى العدالة ، فإن دين الاستحمار يدعوني إلى
 السكوت عن الظلم والفقير ، والصبر ؛ ويكلمني إلى
 « العباس »^(١) ، ويزيح عني كل مسؤولية !! .

(١) العباس بن علي بن أبي طالب استشهد في كربلاء مع أخيه الحسين (ع)

الثاني :: حينها أرى نفسي مقصراً ، خائناً ، مسيئاً الى المجتمع ومصيره ، فأقع تحت ضغط ضميري ، وتجبرني « الدراية الاجتماعية » الى أن أُرْجِعَ حقوق الناس اليهم ، واستسمحهم فيما فرطت في جانبهم ، إلا أنك غير قادر على أن تُرْجِعَ اليهم حقوقهم ، ثم ليس هذا صواباً ! وهناك طريق أسهل . . وهو : أن تُقرأ وانت متجه الى القبلة ، هذه الكلمات ست مرات . . وبعدها ، لا يبقى عليك شيء ، وستُغْفَر ذنوبك كلها وتنال الشفاعة والعفو والرحمة !

أجل ! إن رب هذا الدين سيعفو عن جميع السيئات والقبائح والمنكرات بسهولة ، وسيمحو ذنوبك ، ولو كانت عدد رمال السوديان ، ونجوم السماوات ، بنفحة واحدة !! . وهكذا ؟ تتساءل أنت : لأي شيء أتحمل ثقل المسؤولية الاجتماعية ، إذا كان واجبي نحو الناس ، وحياتهم يلزمني أن أموت من أجلهم ، وأضحى بنفسني في سبيلهم ! لم هذا ؟ وهناك طريق أسهل ، انه « كتاب الأدعية » فهو يفتح لي أبواب الجنان ، من غير تعب ولا نصب ، ودون مشقة أو أجهاد فكر ، وبالتالي دون أي مسؤولية .

إنه الدين المستحمر ، الذي يقول لك : يكفي أن

تُدْخِلُ السرور الى قلب واحد ، او تقضي حاجة آخر ،
حتى تمحي كل ذنوبك ، وتُبدل سيئاتك حسنات ،
وتقضى عنك كل المسؤوليات الاجتماعية .

والخلاصة : أن الدين المستحمر ، بكل استيفاء
حقى ، والأخذ بمن ظلمني الى ما بعد الموت ، هذا بالنسبة
لي وأنا مظلوم ، أما عندما أكون ظالماً ، فإنه يعلمني ألا
استرضي المظلوم ، بل ، عليّ أن اطلب رضا ولاة الله
والدين !!^(١) فتصبح اولئك لي ، بالنيابة عن جميع
المظلومين ، وحتى عن الله على جواز دخولي الجنة

ومن هنا نتبين أن دين الانحراف يدعو الطرفين ، الظالم
والمظلوم الى الاستحمار ، ويُبَدِّلُ كل القضايا الى مسائل
ذهنية ، ويتكفل برفع كل المسؤوليات الاجتماعية عن كاهل كل
صالح ، وغير صالح بسهولة وبمكر خاص ! لا يعرفه سوى ولاة
الله الرسميون ، والوسائط الرسمية المدربة .

الزهد :

الزهد نوع من الاستحمار ، لأنه يأمر الانسان أن يترك
حقوقه الاجتماعية ، وحاجاته الطبيعية جانباً ، ويقطع

(١) فيصادق اولئك - بالنيابة عن جميع الذين ظلمت ، وحتى نيابة عن الله - على
جواز دخولي الجنة .

حبيل الأمل منها جميعاً ! ويُبقى الإنسان مرتبطاً بحاجات بسيطة جداً ، لا تتجاوز حاجات الحيوان . وكذلك ، يسلب الزهد من الفرد درايته النفسية ، ويمسحه حقه من التمتع كالإنسان ، بجميع المواهب ، والنعم ، التي خلقت له في الدنيا ، وليس لأحد أن يمنعه من التمتع بها . وفي النهاية ، يسبب الزهد حيلة لصاحبه للانزواء والقناعة والاكتفاء بالقليل من الطعام ، وباختصار يدعو الزهد الناس جميعاً لترك حقوقهم ، والتخلص من حطام الدنيا لصالح أعدائهم ، أصل الحرص والمطامع ، ولهذا نرى الزهد وسيلة لتنفيذ الظلم .

الشعر :

لاحظوا نموذجاً من الشعر ، في كتاب يعود تأريخه الى سنة ٦١٨ هجرية ، وهي السنة التي دخل فيها المغول الى ايران ، وغربوا بلخ ، ونهبوا كل الشمال ، وتركوا ايران تسبج في لجة من الدماء . يقول فيه كاتبه : « انا عارب و فار . نحن لكنا في حالة هرب ، لأن المغول جساؤا والينا . . . انهم أتونا ، وها نحن نضر طلباً للنجاة ! » . في تلك الظروف ، وفي تلك الحال ، كان المؤلف ينظم الشعر ! فإلى كم يرتفع الصلف ، وإلى أي حد يصل الاطمشان ! وشاعرونا ينظم قصيدة من مائة بيت ، يرتب الكلمات والعبارات على نهج ، تقرأها فيه فإذا هي قصيدة

في مدح الخاقان ، وإذا قرأتها على نحو آخر ، تصبح غزلاً . . .
وهذا النوع من النظم . يسمى « صنعة المطير » ، مأخوذ من
الطير .

وقد تقرأ القصيدة على شكل الشجرة ، كأن توضع
الكلمات مكان الأغصان والأوراق والأثمار ، فيكون
الشعر من نوع الرباعي في وصف مولى ؛ ويقال لهذه
الصنعة صنعة التشجير ، مأخوذة من الشجرة . ثم إذا
قُرأت بعد بترتيب كلماتها على شكل بقرة أو حمار تكون
مدحاً للخابان ! فأحسبوا معي ، الى كم من الزمان يحتاج
الانسان ، لِيُدْخَلَ سبع او ثمان قصائد غزلية ،
ورباعيات ، بعضها ببعض ، ليخرج للناس صنائع
مختلفة ! لا شك ، أنه أمر يحتاج الى مزيد من الفطنة
والدهاء ، ليكون الشاعر قادراً على نظم قصيدة ، تقع
الكلمة الثانية من البيت الأول فيها ، موقع الكلمة الثانية
والعشرين في منظومة غزلية ، وتقع الكلمة الحادية عشرة
من المصراع السابع في بداية شعر رباعي ، والكلمة ،
الثالثة من المصراع السابع في بداية شعر خماسي (هذا الى
جانب الوزن الخاص ، والمضمون الخاص لكل نوع من
تلك المنظومات !) . لا بأس إذاً ، لكن ما الفائدة من هذا
العمل ؟ فبينما كان جنكيز خان يحول البلاد طولاً وعرضاً ،
ينهب ويحرق ويقتل ، يفر هذا الشاعر على وجهه طالباً

النجاة ، ويقوم بعمله هذا في حالة فراره ؛ فانظروا معي كيف يُنَسَّخُ الانسان ، ألا يكون ضحية الاستحمار .

وفي طهران ايضاً ؛ كان هناك شاعر فصيح ، ينظم باللغة العربية ؛ إلا أنه ليست لديه القدرة على نظم الشعر القومي والحماسي واستخدام الصنائع البديعية . وكان في الوقت نفسه ، رئيس مكتب الاسناد والزواج والطلاق ، وعندما حاول ان ينظم شعراً في موضوع ما ، لم يوفق ، فعمد الى جمع كل المطالب الخطية التي وزعتها دائرة تسجيل الاسناد العامة على مكاتبها الرسمية من سنة ١٣٢٠ و ١٣٢٧ ، أي في الفترة التي كانت ايران ، تعاني فيها الضغط من احتلال أربعة جيوش أجنبية !! إن هذا مصاب بداء الشعر ! انظروا الى الفترة الزمنية بين سنتي ١٣٢٠ و ١٣٢٧ ، تجددوا مصير ايران ، وحكمها ، ووجودها ، وحروبها الداخلية والخارجية ، والأطراف المتنازعة فيها ؛ من أهم الأحداث ، بينما يمضي هذا الأديب ليُخْرِجَ لمجتمعه ، ذلك العمل الفني الرائع ! انه الاستحمار بواسطة الشعر !

القومية :

كان الألماني البائس ، زمن هيتلر ، يعرض على « صندويجة » ويقول بزهو وغرور : أنا عازم على الحرب !

ولو سألناه : لأي سبب تحارب ؟؟ لأجاب : هناك في اميركا ، خمسة ملايين من العرق الجرمانى ، أريد أن أرجعهم الى المانيا ، كي لا يتلوث أصلهم ، فينمزج بسائر القوميات ! .

حقاً : ما أسخفه ؛ إنه يموت جوعاً وبؤساً وفاقة ، ولا يشعر بذلك ، بل ، لا يدرك مدى تأثير الدعاية المزيفة عليه ، انه يريد اخراج خمسة ملايين نسمة من الأصل الجرمانى ، اخراجهم من اميركا ، والعودة بهم الى المانيا ، كيلا يختلطوا بالعروق الأخرى ، فيتلوثون ، لا عمل له غير هذا ، لقد تركز الاستحمار في قلبه ! .

الفخر بالماضي والاعتزاز به :

كان ايراني ومصري يتحدثان ، ويفخران بماضيهما ، (المصري يمتز ويفتخر بالأهرام ، وقبور الفراعنة ، حيث يخرجون جثماناً دُفِنَ قبل خمسة آلاف سنة ، ويأتون به الى الساحة « نموذجاً » ، ولم يدركوا أن هذا المرحوم ، كان في حياته ، ابن جرثومة قذرة ، فكيف تكون ميتته نموذجاً ؟) . خاطب المصري زميله الايراني^(١) قائلاً :

(١) بأي شيء يمهمون على الانسان ، يعدمون المفاخر الموجودة به ، وسليونه القدرات الحالية ، ولا يعتنون بها ، ثم يفخرون ! وهذا الشاعر الموسوم بالعراقي ، الفاسق المنحرف أخلاقياً ، يتجول في البلاد ، وكلما دخل بلداً =

قيل إنه عثر في أهرامنا على بكرة وأسلاك وخيوط ،
 فاتضح بعدها أنه كانت لدينا انذاك ، أجهزة مخبرات
 سلكية !! فردَّ عليه زميله الإيراني : نحن في ايران ، كلما
 تحققنا وفتشنا في آثار (تحت جمشيد) لا نعثر على أثر بكرة
 أو أسلاك أو خيوط ، ومن هنا يتضح أنه كانت لدينا
 انذاك ، أجهزة مخبرات لاسلكية ! . . . نحن نفرح بهذه
 الأشياء ، ونفتخر بقضايانا القومية البائدة ! بينما لدينا آلاف
 النوابع ، والأسانيد التاريخية والعلمية في الحضارة
 الاسلامية ، نحن نعرفها ، والعالم كله يعرفها ، وهي
 شواهد على قابليات الفرد الإيراني . لكن ، الاعتزاز
 بالماضي ، واللجوء الى القضاء والقدر والشفاعة والثواب ،

= أفسد فيه ، وإذا طلبه هرب الى بلد آخر ، وأفسد فيه ايضاً ، إن هذا دأبه .
 لكن ، انظروا الآن ، ما يعمل له من تجليل وتعظيم وتكريم ! فكل سنة
 يطبع ديوانه مرة ، وشعره ، يقرأ كل ليلة من الاذاعة والتلفزيون ، وتعطى
 لشعره وأدبه الأولوية في التحقيق ، بينما لدينا قابليات شعرية وأدبية حية
 وموجودة ، من دون أن يعتنى بها او يشجع أصحابها ، في الوقت التي هي
 ائمن وأرقى من السواحي الأدبية والانسانية مما قاله ذلك المنهور . لكنها
 ضائعة ! وقد تبقى مهجورة ، فتل ولا تسمح الظروف المالية وغير المالية
 بطبعها ، ويبقى أهل تلك القابليات ، يخطون بأقلامهم ليلاً نهاراً لسد
 جوعهم ، وجوع من يعولون به ، وقد يتحول أحدهم الى حارس بوابة او
 محاسب شركة ، لماذا ؟ لأن قيمة الأشياء وأثمانها ، نعلو وترقى بالنسبة
 لقدمها !! .

والشكر والتشويش النفسي ، وعقدة الذنب ، والفوز
الفردى بالجنة ، من أدوات الاستعمار القديم . كلها تمح
الانسان على متابعة أعماله بنفسه ، منقطعاً عن الناس ،
باحثاً فى كتب الأدعية عن طريقه الفردى الى الجنة ! إن
هذا أكبر استحمار ، وأكبر مصيبة تصيب المجتمعات
الدينية أن تقع فى الاستحمار عن طريق الأديان المحرفة .

الشكر :

ولا أعنى الشكر الذى يُوصى به الدين الصادق ، دين
المعرفة ، الذى هو عبارة عن دراية الانسان ، ووقوفه على
قيمه ، ومعرفته بالنعم والمواهب الموجودة عنده ، اقصد
الشكر الذى تقول به فلسفة الدين المزيفة ، أى الشكر
على التعاسة والنخاسة ، الشكر الذى هو فلسفة العجز
والفاقة ! . كان يقول ! « إنه كشكر ذلك الرجل الذى كان
يقول : « الحمد لله الذى لم يجعل آذاننا تحت آباطنا » .
حقاً ، إن هذا لبائس تعيس ، لأنه لم يجد نعمة غير هذه
يحمد الله عليها ، فهو يفتش عن أى شيء يشكر الله
عليه ، وماذا لو كانت آذاننا تحت آباطنا ؟ كنا سنجبر على
رفع الآباط كلما تكلم أحدنا لنسمع ما يقول !! وستكون
الكيفية مضحكة جداً . . . أما الآن ، فنسمع دون أن
نحرك ساكناً ، إذا . . . لك الشكر يا الله !! .

ومثل هذا ، من أن أحدهم كان يأكل « تريدأ » ويشكر الله ! فسمعه واحد ، فقال له : ألا تحجل ؟ على أي شيء تشكر الله ؟ ! . وذكرونا بالمناسبة ؛ أن « مقدساً » من الأشراف ، كان يرقى المنبر أيام شهر رمضان رجاء للثواب ، وكان يشكر الله مرة كل يوم كجزء من ثلاثين شكراً ، حيث كان يكتشف كل يوم نعمة جديدة . وإذا سأله العوام يوماً علام تشكر الله ؟ يجيب ، أنه غداً يوم القيامة ، إذا جاءت ملائكة العذاب ، وسألتكم ، لم أذنبتم ، وقد أعطاكم الله عقلاً وشعوراً وقوة وفطنة وقابلية ؟ وحيث انتم عوام ، لا تعرفون كيف تحييون ، عليكم أن تشكروا الله لخلقه أناساً مثلنا !! .

وغداً ، يعود هذا القديس ، فيصعد المنبر ، ويضج الناس بشكر الله ، وعندما يسألونه ؛ يجيب : ليتصور أحدكم أنه جالس في ليلة من ليالي الصيف على سطح داره ، وقد وضع أمامه كأساً فيه سكنجبين^(١) ، وأضاف إليه خياراً ، ومقداراً من حب القنب ، ثم قطعاً من الثلج ؛ فصار الجميع كالبرد ، ثم يضع ذلك الكأس عند رأسه وينام . وفي منتصف الليل ، يمر جبرائيل من

(١) نوع من الشراب مصنوع من السكر .

السماء ، ويرى الكأس ، فلو كان مخلوقاً على النحو الذي
يمكنه أن لفاجأت كأسك وقد
جبرائيل . وبعدها ، ماذا كنت تعمل ؟ أما إن ؛ وقد
خلق العلي الأعلى جبرائيل على نحو لا يمكنه أن
إذا ، اشكروا الله بصوت عالٍ . . . هذه فلسفة حياتنا !!
وإننا وإن حسبناها سخرية إلا أنها فلسفة حياتنا .

ثم . . انظروا الى عامة شعبنا ، كيف اقتنعوا
ورضوا . . ثم الى ولئك المقدسين المتدينين ، الى أي حد
هم أقنع وأرضى ! انهم راضون بنسبة يؤسهم
وتعاستهم ، انه الشكر الاستعماري ، المعاكس للشكر على
« معرفة النعم » تماماً . ولو وافقناهم على هذا الجهل ،
وهذه الغفلة عن « النعم » ، التي سلبت منهم ، وهم
يكررون الشكر لله ، لوصانا الى اسوأ من هذه الحال ! .

انظر دائماً لمن هو دونك ! لو كان هذا صحيحاً ، لما
كانت هناك حاجة للتقدم ، ولو اقتصر الأمر ، على أن
ننظر نحن الى افغانستان ، فنقع ، وينظر الأفغانيون الى
اليمن فيقنعون ، وينظر اليمنيون الى موزمبيق فيقنعون ، لما
كانت هناك حاجة للتحرك ايضاً ، بل لأي شيء نتحرك ؟
ان هذا النوع من الشكر هو فلسفة الرجعية وهنا لدي
سؤال ، وهو هل أن المتجددون مصابون باستحمار فلسفة

الشكر الحمقاء ، لكن بصورة جديدة ومحترمة وهل هم
كاولئك في البلاء ، راضون شاكرون بما لديهم ؟ لكن لو
نظرتم الى رضاهم من أجل أي شيء وأي قضايا ؟ لعلمتم
أنه نفس شكرهم الأحق السخيف !! .

الفصل في القسمة

أشكال الاستحمار

للاستحمار شكلان : مباشر وغير مباشر . فالمباشر منه ، عبارة عن تحريك الأذهان الى الجهل والغفلة ، أو سوقها الى الضلال والانحراف . أما غير المباشر ، فهو عبارة عن الهاء الأذهان بالحقوق الجزئية ، البسيطة اللافورية ، لتتشغل عن المطالبة او التفكير بالحقوق الأساسية والحياتية الكبيرة والفورية . فمثلاً ، لنفرض اني أنا قيم على صغير ، وأريد أن أهليه ، فأختلس ممتلكاته ، وأنقلها بأسمي ، دون ان يعلم ! فقصدي إذاً أن أختار له أداة استحمار من نوعه . وكل أداة تلهيه عن تلك الخطوة التي أعددتها له ، كي انقذ إرادتي ، دون أن يشعر بقصدي ، هي استحمار ، والنتيجة أن أداة استحمار أي فرد ترتبط بنوعه .

وإذا ما رأيته جيلًا ، ذا قامة متناسبة ، فأشجعه على الرياضة ، ذاكرًا له محاسنها ومنافعها ، فيسير في وادٍ من الخيالات والأمنيات ، كالمباريات ، والألعاب الأولمبية ، حيث الشهرة وما شابه . وإذا رأيته من غير هذا النوع ، بل من طراز أولئك المثقفين والمتجددين ، فأشجعه على الدراسة والاستمرار بها ، حتى الحصول على الشهادات العالية ، وبعدها أعود فأذكر له فوائد العلم ، وأن طلب العلم فريضة . . وأعمل حتى أساعده على السفر الى أميركا لاتمام دراسته ، واتكفل بتأمين ثلاثة أو أربعة آلاف تومان له شهرياً ؛ وهو في أميركا ، وإذا اقتضى الأمر ، إرسال أكثر ، وهكذا أفى بكل ما وعدته به ! لكن هذا كله ليس سوى أداة مرحلية لاختلاس ثروته وميراثه .

وإن كان غير صالح للرياضة أو للدراسة ، بل هو من نوع أولئك العاطفين ، يهوى العزلة والخيالات و . . . فأشجعه على الصوم والصلاة والأدعية والزيارات ، وابذل له كل ما يريد من أجل نذر وزيارة وجنة وآخرة . وما ذلك إلا لكي ألهيه ، وأقضي حاجتي معه . وهنا نرى ، أن الدين والرياضة والفن والدراسة والعلم والخير والشر وما شاكلها أدوات استحمار ، لأنها تؤدي للإلهاء والإنشغال عن الحق الفوري . فأداة الاستحمار إذاً ، تُنتخب حسب

نوع الفرد ، الذي يراد استعمار ، وبعدها ، يحرك المستعمرون الفرد نحو ميوله !! . وأخيراً ، يصبح عندنا جماعة تشغل بالأدعية ، وأخرى تعمل بالرياضة ، وفريق منشغل بالفن ، وآخر بالعلم ، وبعضهم بالتحقيق ، وبعضهم الآخر بالزهد ، وكل بما لديهم فرحون . فكل شيء إذا ، يشغلني « انا » كإنسان ، « ونحن » كمجتمع ، عن الدراية الانسانية والدراية الاجتماعية هو أداة استعمار .

المعركة الإيهامية

الحرب الإيهامية ، هي إحدى أدوات الاستعمار ، والإلهاء عن الدرايتين المذكورتين . ولقد ذكر عمي الساكن في قرية « مزنيان » أن سيداً من هذه القرية ، عامله معاملة مضحكة ، حيث أن عمي كان يحب « الديوك » كثيراً ، وذات يوم ؛ أتى إليه ذلك السيد وقال له :

- في « بهمن آباد » ، بالقرب من قريتنا ، تُباع الديوك رخيصة جداً !!

- بكم الواحد مثلاً ؟

- انها ديوك جميلة ، سالمة وغير اميركية ؛ والواحد منها بخمسة توأمين !

- لا ! كيف يمكن هذا ؟ (ينكر عمي) ، يباع الديك
هنا بعشرة توأمين ؛ وعلى مسافة كيلومتر واحد من
هنا ، يباع بخمسة ! لا . . لا يمكن هذا !! .
- لا يا مولاي ! إنه ممكن ، أعطني الثمن لآتيك بالديوك !
- خذ . . هذه خمسون تومانا ، فآتني بعشرة !

يمضي السيد ، وبعد ساعتين ، يعود بعشرة ديوك
كبار ، سمان ، الواحد منها بخمسة توأمين فقط ! فيسأله
عمي

- ألا تريد نقوداً بعد ؟ !
- لا . . . يا مولاي ، وإذا كنتم محتاجين لمزيد من
الديوك ، فإني آتيكم بها !

ومر شهران ، ويأتي أحد أصدقاء عمي لزيارته من
(بهمن آباد) ، فيجلسان ويتحدثان ، حيث يقول
الضيف :

- ألا تريد نقوداً ؟ !
- لا . . . يا مولاي ، وإذا كنتم محتاجين لمزيد من الديوك ،
فإني آتيكم بها !

- ان والدك كيك قد وضعت البيض تحت الدجاجة ليكون
فراخاً ، نذرت كل ديك يظهر منها لك !!

وبعد مدة ، ظهر ستة عشر فروجاً ، أو سبعة عشر ، مات منها أربعة أو خمسة ، وظل الباقي وكله ديكه ، ولقد ارسلناها لكم بعد تمام ستة أشهر . فكيف كانت الفراريج ؟

- أي فراريج ؟

- الفراريج التي بعثناها لكم مع السيد !!

- السيد . . أي سيد ؟ انه ابتاع الواحد بخمسة توامين ، واستلم الثمن !

- خمسة توامين . . ماذا تقول ؟ قيمة الديك الواحد في (بهمن آباد) خمسة عشر تومانا ! إنه أغلى من هنا !!

- لقد سألت السيد ، عن ثمن الديك في (بهمن آباد) فقال : خمسة توامين ، ولذا أعطيته خمسين تومانا ، وجاءني بعشرة فراريج !

- لا . . يا مولاي . انه نذر . ما هذا ؟ خمسون تومانا !!

(يقول عمي) ، علمت بعدها أن السيد كان في (بهمن آباد) ، وكان صديقنا الضيف قد طلب منه ، متى عزم على الذهاب الى « مزينان » ان يأخذ لي معه الديكة . وعلى هذا ، اتفق معه السيد ، لكنه جاء الى « مزينان » وقبض خمسين تومانا حتى عاد بالديكة المذكورة !!

ويتابع عمي ، أنه بينما كنت وضييفي نتحدث عن الديكة ، حتى فاجأنا بصوت عال :

مولانا ! لأي شيء انتما جالسان ؟ وقد أريقتم الدماء
خلف داركم ، فقتل اثنان ، ومضى ثلاثة ، وهلك
آخر . . . وأكلت النيران بيت فلان . . . !

-- خرجنا بسرعة ودهشة ، نتحقق الخبر ، فلم نجد
أحداً ، خارج الدار ، ولا في السوق ، إلا رجلين يدخنان
« الغليون » بلا هم ولا غم ! سألناهما : ما الخبر ؟ ما
الذي وقع ؟ اين محل الحادث ؟ فأجابا ! لم يحدث شيء !
عدنا بعدها الى الدار ، فلم نجد السيد ! لقد أخرج نفسه
من تلك الورطة بتلك المعركة الإيهامية ، كيلا يقع في
المحذور .

ايهام ! ايهام !

معركة ! مولاي معركة !! يريد أن يُضَيِّع علينا قضية
الديكة ، فيقول : معركة ! سالت الدماء على
الأرض . . . يريد أن يمسه قضية الديكة ، وحتى تبقى
القضية مجهولة ، يخلق حرباً إيهامية ، يقيم قضية
« فرعية » الى جانب القضية « الأصلية » فتتشغل الأذهان
بها مدة مديدة . . . !! ومن هذا القبيل ! معركة الشعر
القديم مع الشعر الحديث ، والعباءة مع « الميني جوب » ،
والخط الفارسي مع الخط اللاتيني ، والمتأخر مع المتجدد ،

هذه كلها معارك ايهامية فارغة ، كمعركة القتل والدم
والنار من أجل ان تبقى قضية الديكة مستورة .

إنه في الفترة الممتدة بين ١٣٢٠ و ١٣٣٠ ، أُختلقت من
ثمانى عشرة الى عشرين معركة في ايران ، من اجل أن لا
تُعرض قضية شركة النفط على الأفكار والأذهان !! وفي
القرن التاسع عشر الميلادي ، عندما بلغت نشاطات
الاستعمار ذروتها ، ظهر سبعة عشر نبياً ، في فترة لا تزيد
على ثلاث عشرة سنة من الصين الى بو شهر في ايران . وما
ذلك ، وبينما كان أبناء شعبنا ، وأبناء الأمة الاسلامية ،
يتجرعون الموت من ظلم الاستعمار وضغوطه ، قُتِلَ آلاف
الفلاحين الايرانيين في اختلاف عقائدي مداره : هل ان
الامام موجود في عالم المادة ، أم هو من عالم الروح ؟
والغريب ؛ أنه اثناء ذلك الصراع ، ظهر مدع ينفي وجود
الامام على الوجهين المذكورين ، ويقول إنه موجود في عالم
سماوي بين اللاهوت والناسوت ؛ بين العالم العلوي
والعالم السفلي . ان آلاف الفلاحين قد قتلوا من أجل تلك
العقيدة وآلاف من المدنيين البائسين ثاروا ضد مؤيدي هذه
العقيدة فقتلوا .

فمن هما طرفا القتال في حرب « العالم السماوي » اثناء
القرن التاسع عشر ؟ ان طرفا القتال هما : القروي

والمدني ، مؤيدو عقيدة « العالم السماوي » ومخالفوهم !
لأي شيء ؟ لنفي او اثبات العالم السماوي ! متى ؟ في
زمن كانت اوروبا تشهد فيه حرباً رأسمالية ، حرباً
انتاجية ، ومن هنا جاؤوا ليشعلوا نار حرب « العالم
السماوي » . وما هي تلك الحرب ؟ انها الاستعمار !!
وكم من حرب باطلة ، بلا معنى ، تقع بيننا في هذا
الزمان ، فيتضح عبثها بعد انتصار أحد طرفي النزاع ! وما
كل الهتافات والانفعالات التي يتخذها فريق ضد آخر ،
يتخذها الأب ضد ابنه ، والبنات ضد أمها ، والفتى ضد
الفتاة ، يتخذها الحديث ضد القديم ، والمتجدد ضد
المتأخر ، إلا معارك تمويهية ايهامية ! كتلك المعركة التي
قامت من أجل الديكة ، وعند التحقيق والتفتيش ، لا
شيء في النتيجة ، والمعركة تنتهي لصالح الذي أشعل نار
الحرب . . . وبضياع الفرصة ، وهلاك جيل ويأسه ،
وحرمانه من ثمرة جهوده وكفاحه ، يأتي جيل آخر ليواجه
معركة تمويهية أخرى .

حينما يقع اصطدام في مجتمع ما ، ينبغي ان يُنظر اليه ،
من زاوية ارتباطه « بالدراية الانسانية » و « الدراية
الاجتماعية » ، وكم من مسائل فكرية فقهية ، دينية وغير
دينية ، فلسفية وعلمية ، تُفرض الآن على الافكار

والأذهان بشكل كاذب ومنحرف !! وكم من محاورات
ونزاعات ، أُجريت حول بعض الكلمات العربية الداخلة
على اللغة الفارسية ! لقد أصروا على حذف الكلمات العربية
من جذورها من اللغة الفارسية ! حسناً . . . حذفوها ! ثم
ماذا بعد ذلك ؟ لا شيء غير الجدل والنزاع مرة أخرى
على حذف الكلمات ، ثم العجز عن الكلام الصحيح ،
والتصنع بالكم والخرس ! انهم يقولون : لقد تحملنا
متاعب جمّة ، الى يومنا هذا ، حتى بنينا لغة فارسية بليغة ،
وينبغي الآن أن ننقيها حسناً تفعلون ، لكن ماذا بعد ؟ سفاهة
وتفاهة ، والقضية شيء آخر !! القضية الحقيقية شيء
آخر ، والحرب الحقيقية حرب أخرى ! لكن هناك اصواتاً
تعلو وتقول ! ايها الناس : ان الفاقة والبؤس هما سبب
الجهل ، وعلة العلل في خطنا ، في خطنا فلنبذله الى الحروف
اللاتينية ! لقد غيّرت تركيا خطها الى اللاتينية قبل اربعين
عاماً ، وما زالت متأخرة ، بينما تمكنت الصين واليابان في
خمس عشرة سنة ان تحيا الامية من بلادهما ، وأن تصبحا في
عداد البلدان الراقية المتقدمة ، مع بقاء الخط فيها قديماً .
وحيث هو فنٌ بحد ذاته ، كما أن الذين يحسنون قراءة
الخط وكتابته يُعدون من علماء تلك البلاد . فأين انتم يا
بشر ؟ اين تجلسون ؟ هذه كلها حروب استحمارية ، انها
معركة الديكة لتمويه الحقيقة .

الْفَيْضُ السَّادِسُ

التخصص

كل واحد يسير في نهجه وتخصصه على نحو يغفل معه عن قضية المجتمع ومصيره . إنه كبقرة افلاطون تماماً ، عندما يلمس واحد جافرها ، وآخر قرنها ، وثالث ذنبها ، والنتيجة لا أحد يشعر بوجود حيوان ! وهكذا التخصص ؛ بسبب انغماس الانسان في إطار محدود وصغير جداً ، مجرداً عن المجتمع ، بصورة يصعب معها لمس كجسم واحد شامل . وعلى هذا ؛ فالتخصص يعدم الدراية الاجتماعية ، كما يسلب الفرد امكان شعوره بنفسه ، كإنسان مساهم في شتى وجوه الحياة . والسبب في ذلك ، كون التخصص يعمل على نحو الفرد من جهة واحدة ، ويعطله من سائر الجهات . والسؤال هنا : هل التخصص

أمر لازم ؟ نعم . . انه أمر لازم ، ولا ينبغي ان نعدسه ،
لكنه ، علينا في الوقت الذي نتخصص فيه في فروع
مختلفة ، ان نحفظ « كليتنا الانسانية » و « كليتنا
الاجتماعية » .

العلم :

ان الوقوف على حقائق عالم الطبيعة ، والاطلاع على
مظاهر الدنيا ، من مهمة العلم الذي يؤثر فينا على نحو
كاذب ، يبقى معه في عطش الى المعرفة ! حيث يظن
« العالم » أنه ذو نباهة بالنسبة لنفسه ومجتمعه وزمانه .
هذا ، وهم لانه « عالم » لا غير ! والعلم من أجل العلم
اداة انحراف ، وضلال عن النباهة الانسانية والنباهة
الاجتماعية . ولقد صدق « هايدكر » اكبر فلاسفة
عصرنا ، واستاذ سارتر ، عندما قال : انما العلم والحضارة
ثمرة ظروف متراكمة ، عديدة ، اصبح الانسان فيها
غريباً عن نفسه ! أي أنه راح ضحية للتحقيق والعلم
والفن والحضارة .

فنحن عندما نشغل بمطالعة كتاب ، او كشف او
اختراع ، فإننا نكون غريبين عن انفسنا (أي نعدم النباهة
النفسية) فلا نشعر ، حيث نقع آلة بيد العمل ، ومن
أجله . وقد حصلت الحضارة والصناعة والعلم من مجموع

تلك الحالات . ان حصولها كان في حالة ابتعاد الانسان عن نفسه ، وعن التأمل فيها ، والاستغراق في شيء آخر ؛ لأن عمل الانسان كآلة ينتج عنه شيء آخر ، وفي مثل هذه اللحظات ، ظهرت الصناعة والحضارة . ومن هنا ، يضر العلم بالنباهة الانسانية والنباهة الاجتماعية .

القدرة المادية البدنية :

وهذه القدرة أيضا مصيبة كبرى ، بدنية كانت أم فنية أم اقتصادية ، فعندما تتجمع لديّ مثلاً ثروة كبيرة ، وتوفر لي امكانيات كثيرة ، قد أتوهم ان المؤفر لتلك الامكانيات هو « انا » ، و « انا » الذي امتلكها ! وهذا انحراف عن النفس ؛ لأنني جعلت المادة والثروة مكانه « نفسي » ، ونفيت شخصيتي الواقعية ، أو أني ، اتخذت المقام الذي وفرته لي القدرة بدلاً من نفسي ، أو حسبت تلك القدرة شيئاً من قدرتي الانسانية . فخسرت بذلك « النباهة الشخصية » .

لكن حقيقة الأمر غير ذلك ! فقد تكون لبعض الناس قوة جسمية ، كقوة الفيل او الجمل ؛ بينما ليس لهم من النباهة النفسية حتى قوة العصفور ! وهنا أيضاً تضر القدرة الجسمية بالوعي والنباهة ! ولقد قيل ! « العقل السليم في الجسم السليم » نعم ، هكذا ، لكن الجسم السليم ، غير

الجسم « القوي » وغير الجسم « اللامتناسب » ولقد كان بعضهم يقول :

حتى لو بَدُنْتَ ، فإنك لن تكون أضخم من البقرة ؛
ولو فرضنا ذلك ، فعندئذ يحلبونك ! واذا ، ازدادت قوة
ايضاً ، فلن تكون أقوى من الحمار ، ولو فرضنا ذلك ،
فحينئذ يحملونك أسفاراً ! وان ازدادت سرعة في السير
والركض ، فإنك لن تكون أسرع من الفرس ، ولو فرضنا
ذلك ايضاً ؛ فساعتئذ يركبونك ! فالإنسان « الواعي »
بإستطاعته أن يكون قوياً ، لكن الى حد يسيطر معه على
مصيره . ومن هو ذاك الإنسان ؟ إنه بالتأكيد ليس نابليون
القوي ، الذي يعبر عن نفسه ؛ وهو في « جزيرة سنت
هلن » ! قائلاً : كأني خشبة صغيرة ضعيفة تلعب بها
الامواج كيف شاءت . . . صحيح ، ان الله لا يغير ما
بقوم ، حتى يغيروا ما بانفسهم ، لكن ؛ إذا غير الإنسان
ذاته وطبيعته ، يصبح قادراً على تغيير مصيره ومصير
تاريخه ، ولا يرتبط ذلك بالجسم والمال والمقام ، بل
بانسانية الفرد ، التي تبقى له فقط . . .

التجدد او الحضارة الاستهلاكية :

يمكن ان تكون الحضارة والتقدم من دوافع
الاستحمام . . وفي المملكة السعودية مثلاً ، نماذج كثيرة

من هذا التقدم الاستحماري . فالبدوي البائس هناك ، سائق سيارة « الكاديلاك » التي تساوي ٢٢٠٠٠ تومانا بينما هي في اميركا ب ٣٠٠٠ تومانا ! هذا البدوي ، يقود سيارته في بلد لا تُفرض فيه غرامة على المتخلفين في قيادة السيارات ، وليس عندهم نظام موضوع للسير وللسائقين ؛ لأنه حسب رأيهم « مذموم » شرعاً ، ولا يخلو من إشكال . وهناك ؛ يحمل الشرطة أعمدة من الحديد ، يضربون بها على غلاف السيارات المتخلفة بدلاً من تغريمها . ومعلوم عندها ؛ أن السيارة التي تتصدع في مكان أو مكانين ، تُستهلك وتنهار قبل أوانها ، ثم أنه ليس عندهم « مصلح » لصفائح السيارات . وخلاصة الأمر ، ان السيارة تصبح بعد سنة او سنتين غير صالحة للاستفادة ، وكل ذلك للمصدمات التي أصابتها بدلاً من الغرامة المذمومة شرعاً !! والنتيجة . . لصالح من ؟ . . يجلس ذلك السائق البدوي ، برجليه المشققتين ، خلف مقود سيارة « الكاديلاك » او « الشفر » ، يزهو ويفخر الى حد ، لا يجراً عليه الاميركي نفسه ! غير أنه جاهل مدى خسارته ، ووقوعه في مكر عدوه^(١) ، ناسياً قبل سنة أنه كان يرعى

(١) كحكاية الجنرال « اكيوم » تماماً ؛ فإنه سافر مع والده الى افريقيا في بداية صنع الزجاج الملون ، واخذ معها شيئاً من ذلك الزجاج ، فكانا يعرضانه في حفلات زواج رؤساء القبائل فيندهشون من رؤيته ! ويعجبون به ، فيأمرون =

الإبل في البادية ، وانه تعلم الآن قيادة السيارات !! . ان هذا الفخر ليس سوى « الحضارة الاستهلاكية » ، ويجدر أن اقول : أن هذه الحضارة هي اسوأ وأقبح من الوحشة والهمجية ! نعم . . ان الذي يتخضر في الاستهلاك فقط هو دون الوحشي ! لأن الوحشي ، لا يُعَدُّ الأمل في تحضيره من طريق الانتاج ، لكن المستهلك من غير انتاج ، يعدم الأمل به طبيعياً . لقد كان لهذا السائق السعودي سبعة جمالٍ او عشرة في البادية ، فباعها ليفي بالقسط الأول من الذين الذي ركبته من شراء سيارة « الكاديلاك » الاميركية . فتأملوا كيف تخرج الثروة من تلك البلاد الفقيرة ، التي رأسمالها وكل ما فيها تلك الإبل ! ثم راح هذا البدوي يكدح ويتعب ليسد الأقساط الباقية ! لكن ، ماذا بقي عنده الآن ؟ قطعة حديد كانت سيارة لبضعة أيام ، اما اليوم ، فهي صفائح ممزقة تجنباً من أخذ الغرامة !

باع الجمال ، وجلس عدة أيام في « الكاديلاك » بدلاً من ركوب الجمل ، تهبط السيارة ، فيفتح الراديو ، ثم

« باعطائها قطعاً من أجود انواع الغنم . وهم فرحون بما حصل لهم من سعادة وتوفيق (فانظروا الى الهمة والكرم) .

ينطفئ متى شاء ، لقد أمر أن تعمل لها مقاعد من
الليف ، وتُعطى الف شكل وصبغة ، لتكون عربية ! أما
الآن ، فقد بقي هو وقطع من الحديد و . . . لاشيء !! .
ولم يعد يسه ، إلا أن يذهب ، فيفتش عن مكان
للسرقة ، أو يكون سائلاً أو خادماً ، أو ينتظر الموت في
مكان فيريح نفسه . هذا هو مصيره المحتوم ، في بلاد
تبادل مساحتها ضعف مساحة إيران ، وليس فيها اليوم
خمسة آلاف جمل ، بعدما كانت مركزاً لتجمع الجمال ،
التي ترتبط حياة كل الشعب بها ، وهذا العدد القليل من
الجمال في طريقه اليوم الى الزوال ، من اجل اعفاء
السيارات الاميركية من « الغرائم » التخلفية . . انها
الحضارة والتجدد . . وخزن قطع الحديد من السيارات
الاميركية المتلفة !! فما أبأسهم ، وهم فرحون ، يشكرون
ويحمدون ، ويقولون : لقد أصبحنا في جنة ، ولو دخلت
بلادنا قبل خمس سنوات لما رأيت سيارة قط ، وما كنت
تراه جمالاً وشقاوة وتعباً ، سيرنا وترحالنا كله على
الجمال ، أما الآن ، فله الحمد ، طائرات « بوينغ » ،
وسيارات مكيفة و . . . ! حتى أصبح أحدهم يستعيبك
ويحتقرك ، إذا رآك مثلاً في سيارة « بيجو » ، لأن العاديين
هناك ، يمتلكون « كاديلاك » وشفرليت ٧١ و ٧٢
فكيف . . . ؟! هذا تقدمهم . . ظاهر بلا شك ! .

عندما يدخل أوروبي أو أميركي مدينة الرياض اليوم ، سيندهش من التجدد ، فالسيارات كلها حديثة مائة بالمائة من طراز ٦٩ الى ٧٢ ، وليس لها مثيل في أي بلد من العالم ؛ من أميركا الى الشرق الأوسط ؛ كل بلد تراه متأخراً اقتصادياً ، تراه أكثر تجدداً وتجملاً من غيره !! فعندما تقلع بك الطائرة من باريس ، لتهبط في دار السلام عاصمة تانزانيا ، تندهش من الجمال والجلال وعظمة بنايات ، وحداثة العمارات ، والسيارات التي هي آخر طراز حديث !! . فما هو التجميل ؟ انه التقدم في الاستهلاك ، الشيء الذي يقضون علينا من أجله ، ليسلبوا منا أمل الانتاج . . نعم ، الشرق كله ضحية الانتاج الاستهلاكي بواسطة التبعية والتقليد الأعمى !! .

الحريات الفردية :

الحرية الفردية أداة تحذير كبرى لإغفال الحرية الاجتماعية ، حيث النباهة الاجتماعية القضية ذات الأهمية الكبرى . انهم ينادون بالحرية الفردية ، ويدعونك لها ، من أجل تمويه الأذهان ، والغفلة عن « النباهة الاجتماعية » ، حيث يرى الانسان نفسه حراً من الناحية الفردية ، في غذائه وشهوته . كقفص فيه طير ، وقد وضع في صالة مغلقة تماماً ، ثم فتح باب القفص . انه شعور

كاذب بالحرية . . لأن الأسير الذي يعلم أنه مأسور ، يحاول ان يطلق نفسه ، ويتحرر من الأسر ، بينما الذي لا يعلم أنه أسير ، ويشعر بالحرية ، فشعوره وهم وكذب ، وهو يشكر الله ويحمده على تلك الحرية المزيفة .

حرية الجنس :

لحرية الجنس نوعان اثنان :

أحدهما يقدمه الغرب هدية للشرق ، واسمه « حرية الجنس » بدلاً لما ينهيه ويسلبه من المواد الخام ! فالغرب يرى أن عليه ان يتحف الشرق مقابل ما أخذه من المواد الخام ، ولذا يسمح للشرقيين بأن يكونوا أحراراً من « الناحية الجنسية » بلا قيد ولا مانع . . وبعد ذلك ، تأتي أجهزة الدعاية ، والمواصلات الجماعية في الشرق لتؤكد وتدعو الى « الحرية الجنسية » عند جيل يتراوح سنه بين ١٨ و ٢٥ سنة . وعلى هذا ، رأى الغرب من اللازم عليه ان يلهم هذا الجيل ويشغله « بالحرية الجنسية » . وفي اعتقاده ، ان هذا الجيل يتعرض لحالتين من الاضطراب : احدهما من اجل « الحرية الاجتماعية » والثانية ، حالة الاضطراب والتشويش الناتجة عن « الأزمة الجنسية » ، وهكذا ، رأى الغربيون أنه من الأحرى افساح المجال ، أمام هذا الجيل في « حرية الجنس » ليعدموا منه

« الشعور » بالحاجة الى « الحرية الاجتماعية » الزائدة !
أجل ! ان بإمكانهم أن يلهوه خمس سنوات او ست ، أي
طيلة « الأزمة الجنسية » التي تضغط عليه ، حتى يشغل
عن « الحرية الاجتماعية » ، فيتلهى بأهوائه ونزواته ، الى
حد يفقد معه شعوره ، وبعد انقضاء هذه المدة يرتفع
الخطر .

حرية المرأة :

ماذا يقصد بحرية المرأة ؟ والقصد ، الحرب التمويهية !
من أجل الإثارة ، وفتح باب الجدل ، والاختلاف بين
الرجل والمرأة ، والمآثي عن الأساسيات من القضايا
العادلة ، عن حقوقهما ، عن مشكلة الشرق والغرب ، عن
مشكلة المستعمرين والخاضعين للاستعمار

التقليد والتبعية :

لقد قبل الكثير عن هذه القضية ، لكن ، الشيء الذي لم
يتطرق أحد اليه هو « دور المرأة في قضية التقليد » . إن
أكبر عنصر ، يلعب دوراً أساسياً في « الحضارة
الاستهلاكية » هو المرأة ، حيث لها السهم الأوفر ، والدور
الكبير ، في نشر واشاعة الحضارة الاستهلاكية ، وتطور
الأنواع والفرق والجماعات والعلاقات العائلية والروابط

الاجتماعية والسياسية في الثلاثين سنة الأخيرة ، مما يقتضي بحثاً خاصاً لا مجال له هنا ، لكني ، أضرب مثلاً في التبعية وتقليد الآخرين : والمثل مأخوذ من أوروبا ، حيث يذهب الأوروبيون الى الغابات لصيد القردة حية سالمة ، فيضع الصيادون اناءً مملؤً بالصمغ اللزج تحت الأشجار ، او على ضفاف الأنهار ، في عمر القردة ، وإناءً آخر في زاوية أخرى ، يشبه الإناء الأول ، لكن فيه ماء ! ويجنسون ازاءه بانتظار مرور القردة . وعندما تأتي وتقف حذاء الإناء المليء بالصمغ ، يرفع الصيادون أيديهم ، فترفع القردة أيديها ، يغمس الصيادون أيديهم في الأواني المليئة بالماء ، فتغمس القردة أيديها في الأواني المليئة بمادة الصمغ اللزج . يخرج الصيادون أيديهم ، ويضعونها على جباههم كحالة التيمم ، فتعمل القردة مثلهم تماماً ، يمسح الصيادون بأيديهم على وجوههم وعيونهم ، فتمسح القردة ايضاً على الوجوه والعيون ! يقف هؤلاء مقابل الشمس ، فتقف القردة مقابل الشمس !! وبعد ذلك تجف تلك المادة على وجوه القردة ، فتلتصق أجفانها ويتعذر فتحها ! وعندها يذهب الصيادون اليها ويلقون القبض عليها بسهولة !! .

الخلاصة

وفي النتيجة ، يعمل الاستعمار القديم على اشغال الشعوب والهائها عن « النباهة الانسانية » و « النباهة الاجتماعية » لإنشاء جيل مطابق لمقاييسه وحساباته . كأن تكون زنته أربعة مثاقيل ، وطول باعه أربعة ستمترات فقط ، وطريقته المثل ، حية من الأمام ، وعبادة من الخلف ، وكتاب أدعية ، ومسجد ، وصلاة ، وصيام ، وتعزية ! هذا برنامجه اليومي والسلام .

هذا جيل ، ينشئه الاستعمار القديم ، جيل فارغ ، مضطرب ، لا يتحمل أي مسؤولية ! أما الاستعمار الجديد ، فمن أجل ان يطلب « النباهة الانسانية » و « النباهة الاجتماعية » ، يتمثل وينخلص ب « عقيلة »

وسيارة « بييجو » و رزمة مناديل « كلينكس » وقدر من
« المتاع » و « محفظة سفتجات » و « ديون » والسلام ، لا
فكر ولا تعب ، لاهم ولا نصب ، ولا هم يحزنون . هذا
هو لا أكثر !! .

أعيدوا النظر الى فتياتكم ، اللواتي تزوجن ، واللواتي لم
يتزوجن بعد ، وانظروا الى ما كتبن عن أنفسهن ، وكيف
عبّرن عما يجول في باطنهن ، حين كن ، في الصفوف
الثانوية الخامسة والسادسة ، من سن ال ١٨ الى ما فوق ،
تجدوا تشاؤماً وفلسفة . . . رباه ، لم خلقتني ، ايها الموت
لم لا تأخذني ؟ ألا موتاً يباع فأشتريه ! . كلام مليء
بالعواطف الخالية والعبارات الروائية . . ورقة النفس ،
انها تظن نفسها سهرت الليل كله من شدة المرض ! ولقد
ارادت ان تنتحر ، أو عزمّت ان تلقي في بئر . . و . .
و . . من هذه الخيالات والتصورات . .

لكنها الآن ، بعد ان تزوجت ، أضاعت « طرقها
المثلى » كلها في الشهرين او الثلاثة أشهر الأولى من
زواجها ، وأعطت طومار ذكرياتها لشخص يقرأه ، ولم
تذهب لتسترده ، كما انها تستعحي أن تفتحه ، لأي شيء ؟
لأن الأقساط والديون أمرضتها ، وافلجتها تماماً ، وليس
من شفاء لآلامها سوى بطاقات اليانصيب ، واقتراع بنك

(عمران)^(١) ، وما أسرع ما تلتقي طرفاً دائرة عمرها ،
فتخيب آمالها وتذهب هباءً !!

هذا جيل « الاستعمار » الحديث ، وذاك جيل
« الاستعمار » القديم . الاستعمار الذي بات يرصد كل
واحد منا ، نخرج أنفسنا من شكله القديم ، فيتلقانا
بشكله الحديث ، نتمرد عليه في مكان ، فيلهينا ونقع في
حبائله في مكان آخر ، نرفضه من ناحية ، فيسخرنا من
ناحية أخرى ! ننتبه الى جانب منه ، فيشغلنا في جانب
آخر ، نكتشف حرباً إيهامية ، فيوقعنا في حرب إيهامية
أخرى . . وهكذا دائماً !! .

وعلى هذا ، فإن جيلنا أسير في أيدي تلك القدرات ،
الى حد يمكنها ان تصنعه كغيرها شعائر ، وطبقاً لمقاييس
معينة ، تنتجه كما تنتج من مادة المطاط (البلاستيك) انواع
الأواني والسلع ، اغهم أهل علم وصناعة ، ولديهم تلفزيون
وصحف ومعارض ومسرحيات وفنون ، والى جانب هذا
كله ، استخدموا الترجمة والعلوم ، وعلم الاجتماع ، كما
أن وحدة القياس العالمي لهم ايضاً . . فكيف نطمئن اذاً

(١) جوائز سحب البنك الوطني

الى عدم الوقوع في أسر « الاستحمار القديم » او
« الاستحمار الجديد » كيف ؟ ونحن الصغار البسطاء
الغافلون نحزن ونصاب « بعقدة » من أجل أي شيء
يسير ثم نسر ونفرح لأمر جزئي . . أحزاننا وأفراحنا ومثلنا
العليا يسيرة جداً ! .

إن أي قضية فردية او اجتماعية ، أدبية كانت أم
اخلاقية أم فلسفية ، دينية او غير دينية تُعرض علينا ،
وهي بعيدة عن « النباهة الانسانية » و « النباهة
الاجتماعية » ، ومنحرفة عنها ، هي استحمار ، قديم أو
جديد مهما كانت مقدسة .